لمحاتٌ في إعجاز سورة الفرقان

بقلم
الدّكتور حسن محمّد باجودة
أستاذ الدّراسات القرآنيّة البيانيّة
وعميد كلّيّة اللّغة العربيّة
جامعة أمّ القرى بمكّة المكرّمة

المقدّمة

الحمدلله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على أشرف المرسلين، سيّدنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فهذه الدّراسة بعنوان:" لمحاتٌ في إعجاز سورة الفرقان" ألقيها استجابةً لدعوةٍ كريمةٍ من نادي مكّة الثّقافي الأدبيّ بأن ألقي محاضرةً في موسمه الثّقافيّ لعام ١٤٢٠هـ في شهر رمضان المبارك. ولمّا كان شهر رمضان المبارك الشّهر الّذي أنزل فيه القرآن الكريم على الرّسول الأمين محمّد بن عبد الله ﷺ ، وكان الفرقان من أسماء القرآن الكريم لأنه يَفْرُق ويَفْصِل بين الحقّ والباطل والحلال والحرام، وكان في القرآن الكريم سورة الفرقان الّتي تتحدّث كثيراً عن القرآن الكريم، لذا فقد رغبت في أن تكون المحاضرة ذات علاقةٍ بسورة الفرقان المكّيّة الكريمة.

وهذه الدّراسة ذات شقّين اثنين، عنوان أحدهما مسائلُ متعلّقةٌ بسورة الفرقان. وعنوان آخرهما: مظاهر من إعجاز سورة الفرقان.

ولا أملك لنادي مكّة الثّقافيّ الأدبيّ ممثَّلاً في معالي رئيسه الدّكتور راشد الربح إلاّ أن أشكر له هذه الثّقة وإتاحة الفرصة لي كي أتحدّث في شهر رمضان المبارك شهر القرآن الكريم عن لمحاتٍ في إعجاز سورةٍ تحمل أحد أسماء القرآن الكريم وهي سورة"الفرقان".

والله تعالى أسأل أن ينفع بهذا العمل، وأن يتقبّله، إنّه عزّ وجلّ أكرم مسئولٍ وأعظم مأمول.

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمدلله ربّ العالمين.

مكّة المكرّمة
صبيحة يوم الثّلاثاء ٨/٨/١٤٢٠هـ
الموافق ١٦/١١/١٩٩٩م

كتبه الفقير إلى عفو ربّه
د . حسن محمّد باجودة
أستاذ الدّراسات القرآنيّة البيانيّة
وعميد كلّيّة اللّغة العربيّة
جامعة أمّ القرى بمكّة المكرّمة

مسائل متعلّقة بسورة الفرقان

١- سورة الفرقان من المكّيّ من القرآن الّذي نزل قبل هجرة المصطفى ﷺ إلى المدينة المنوّرة[١].

٢- عدد آيات السّورة الكريمة سبعٌ وسبعون آية، وعدد كلماتها ثمانمائة واثنتان وسبعون كلمة، وعدد حروفها ثلاثة آلاف وسبعمائة وثمانون حرفاً.

٣- تشير أولى آيات السّورة الكريمة إلى موضوعاتها. قال عزّ من قائل:﴿ تبارك الّذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا﴾ وهذه الموضوعات هي توحيد الله تعالى الّذي تعظّم وتمجّد وتكاثر خيره، والّذي نزّل القرآن الكريم، الّذي يَفْرُق بين الحقِ والباطل، والحلالِ والحرام، على عبده محمّد ﷺ ، ليكون عليه الصّلاة والسّلام، للعالمين، الإنس والجنّ، نذيراً بين يدي عذابٍ شديد، لمن كفر وأصرّ على كفره. أمّا من آمن وعمل صالحاً فإنّه، في المقابل، له جنّات النّعيم. وهذا مفهومٌ ضمنا. وقد تجلّت ثمرة المنهج القرآنيّ التّربويّ في القسم الأخير من السّورة الكريمة الّذي تحدّث عن عباد الرّحمن.

٤- أمكن تقسيم السّورة الكريمة إلى عدّة أقسامٍ، في ضوء القضايا الّتي تتناولها، وكان القسم الأوّل يتألّف من ستّ آياتٍ كريمات، ومحورُه القرآنُ الكريم الّذي نزّله الله تعالى على عبده محمّدٍ ﷺ، والّذي يهدي للطّريقة الّتي هي أقوم. وفي هذا القسم جاءت ثلاث فواصل هي الرّاء واللّام والميم في هذا النّسق. وهذه الفواصل الثّلاث، من حيث كثرةُ ورودِها في السّورة الكريمة جاءت في هذا النّسق نفسه. وكأنّ مجيء الفواصل الثّلاث في السّورة الكريمة، وفق هذا التّرتيب ذاته. لقد جاء في السّورة الكريمة خمس فواصل، إنّها هي وَعَدَدَ آياتها على النّحو التّالي: فاصلة الرّاء في ثلاثٍ وأربعين آية، وفاصلة اللّام في سَبْعَ عَشْرَةَ آية، وفاصلة الميم في أَرْبَعَ

---

[١] الإتقان في علوم القرآن للسّيوطي ٤٣/١ وتفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنّيسابوري ١٢٢/١٨ مطبوع بهامش تفسير الطّبري.

عَشْرَةَ آية، وفاصلة النّون في آيتين كريمتين، وفاصلة الباء في آيةٍ كريمةٍ واحدة. وذلك على النّحو التّالي.

فاصلة الرّاء في الآيات الكريمات

١-٢-٣-٤-٧-٨-١٠-١١-١٢-١٣-١٤-١٥-١٨-١٩-٢٠-٢١-٢٢-٢٣-٢٦-٣٠-٣١-٣٣-٣٥-٣٦-٣٨-٣٩-٤٠-٤٦-٤٧-٤٨-٤٩-٥٠-٥١-٥٢-٥٣-٥٤-٥٥-٥٦-٥٨-٥٩-٦٠-٦١-٦٢. ثلاثٌ وأربعون آية.

وفاصلة الّلام في الآيات الكريمات ٥-٩-١٦-١٧-٢٤-٢٥-٢٧-٢٨-٢٩-٣٢-٣٤-٤١-٤٢-٤٣-٤٤-٤٥-٥٧. سبع عشرة آية.

وفاصلة الميم في الآيات ٦-٣٧-٦٣-٦٤-٦٥-٦٦-٦٧-٦٨-٧٠-٧٢-٧٤-٧٥-٧٦-٧٧. أربع عشرة آية.

وفاصلة النّون في آيتين كريمتين هما ٦٩-٧٣.

وفاصلة الباء في آيةٍ كريمةٍ واحدة هي الحادية والسّبعون.

٥- نصّت أولى آيات سورة الفرقان المكّيّة الكريمة على أنّ محمّد بن عبدالله ﷺ رسول الله ﷺ رسول الله تعالى للعالمين أجمعين. قال تعالى:﴿ تبارك الّذي الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا﴾ وهكذا يتأكّد أنّ رسالة الإسلام عالميّةٌ منذ فجرها، خلافاً لما يزعم الطّاعنون بأنّ رسالة الإسلام ليست عالميّةً منذ فجرها. وإنّ رسالة الإسلام العالميّة منذ فجرها أكّدتها سورتان مكّيّتان نزلت إحداهما قبل سورة الفرقان، وهي سورة الأعراف[١] ونزلت أخراهما بعدها، وهي سورة سبأ[٢] جاء في

---

[١] الإتقان ١/٤٢.

[٢] الإتقان ١/٤٣.

سورة الأعراف[1] قول الحقّ جلّ وعلا:﴿ قُلْ ياأيّها النّاس إنّي رسول الله إليكم جميعاً الّذي له ملك السّماوات والأرض لاإله إلّاهو يحي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النّبيّ الأمّيّ الّذي يؤمن بالله وكلماته واتّبعوه لعلّكم تهتدون﴾وجاء في سورة سبأ[2] قول الحقّ جلّ وعلا:﴿ ومأرسلناك إلّا كافّةً للنّاس بشيراً ونذيراً ولكنّ أكثر النّاس لايعلمون﴾

وقد نصّت سورة الأنبياء المكّيّة الكريمة الّتي تأخّر نزولها عن نزول سور الأعراف والفرقان وسبأ[3] على أنّ ربّ العزّة والجلال أرسل محمّداً ﷺ رحمةً للعالمين. قال عزّ من قائل[4]:﴿ ومأرسلناك إلّا رحمةً للعالمين﴾.

٦- أشارت أولى آيات السّورة الكريمة إلى تنزيل ربّ العزّة والجلال القرآن الكريم على المصطفى ﷺ . وفي هذا الموقف الشّريف يُنْعَتُ المصطفى ﷺ بأنّه عبدالله تعالى. ولاتخفى الحكمة من هذا النّعت، فالمصطفى ﷺ، وهو خير الخلق وأشراف المرسلين وخاتم النّبيّين، هو دائماً وأبداً عبدٌالله تعالى، ومن باب الأحرى كلّ من سواه. وبهذا يتّضح الفصل البيّن بين مكان العبوديّة ومقام الألوهيّة. وإنّ التّبيين الواضح لمكان عبوديّة المصطفى ﷺ يتأكّد في موقفين آخرين شريفين، يُنْعَتُ فيهما المصطفى ﷺ بأنّه عبدالله تعالى. وأوّل الموقفين يتعلّق بمناسبة الإسراء بالمصطفى ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى. قال عزّ من قائل[5]:﴿ سبحان الّذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الّذي باركنا حوله لنريه من

---

(١) الآية ١٥٨.

(٢) الآية ٢٨.

(٣) الإتقان ١/٤٣.

(٤) سورة الأنبياء ١٠٧.

(٥) سورة الإسراء ١.

آياتنا. إنّه هو السّميع البصير﴾ وآخر الموقفين يتعلّق بعبادة المصطفى ﷺ ربّه جلّ وعلا. قال عزّ من قائل[١]:﴿ وأنّه لمّا قام عبدالله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا﴾ والمعنى أنّ النّبيّ ﷺ حينما كان يصلّى بأصحابه صلاة الفجر بنخلة[٢] وهو موضعٌ بين مكّة والطّائف[٣] كاد الجنّ الّذين تسمّعوا للقرآن الكريم، يكونون على المصطفى ﷺ كاللِّبَد، لتراكب جماعاتهم وازدحامهم عليه ﷺ. واللِّبَد جمع اللِّبدة، مثل القِرَب جمع القِرْبة. واللّبدة واللِّبَد الشّيء الملبَّد، أي المتراكب بعضه على بعض[٤].

٧- ممّا اتّسعت به سورة الفرقان المكّيّة الكريمة، عرضُ الآيات الكريمات لاتّهامات الكافرين واعتراضاتِهِمْ واقتراحاتِهِمْ، في أسلوب القرآن الكريم المعجز، والكَرُّ عليها بالنّقض في أسلوب القرآن الكريم المعجز. وأحياناً يكون النّقض على الفور، وذلك على غرار اتّهام الكافرين للمصطفى ﷺ بأنّه افترى القرآن الكريم وأعانه عليه قومٌ آخرون. قال عزّ من قائل[٥]:﴿وقال الّذين كفروا إن هذا إلّا إفكٌ افتراه وأعانه عليه قومٌ آخرون فقد جاءوا ظلماً وزورا﴾ وعلى غرار اتّهامهم للقرآن الكريم بأنّه أساطير الأوّلين وأكاذيبهم طلب النّبيّ ﷺ أن تُكْتَبَ له، فهي تُقْرأ عليه غُدْوةً وعشيّا. قال عزّ من قائل[٦]:﴿ وقالوا أساطير الأوّلين اكتتبها فهي تُمْلَى عليه بُكْرَةً وأصيلا. قل أنزله الّذي يعلم السّرّ في السّماوات والأرض. إنّه كان غفوراً رحيما﴾ وعلى غرار اقتراحهم نزول القرآن جملةً واحدةً كالتّوراة والإنجيل وليس مفرّقا. قال عزّ من

---

[١] سورة الجنّ١٩.

[٢] فتح الباري ٦٦٩/٨ حديث رقم ٤٩٢١.

[٣] فتح الباري ٦٦٩/٨ حديث رقم ٤٩٢١.

[٤] انظر فتح الباري ٦٧٠/٨.

[٥] سورة الفرقان٤.

[٦] فتح الباري ٦٦٩/٨ حديث رقم ٤٩٢١.

قائل[1]:﴿ وقال الّذين كفروا لولا نُزِّل عليه القرآن جملةً واحدة. كذلك لنثبّت به فؤادك ورتّلناه ترتيلا﴾.

وأحياناً يكون نقض اتّهامات الكافرين واعتراضاتِهِمْ واقتراحاتِهِمْ على التّراخي، وفي أسلوب القرآن الكريم المعجز دائماً وأبداً. واللّطيف في الأمر أنّ اتّهامات الكافرين واعتراضاتهم واقتراحاتِهِمْ يعاد ترتيبها في أثناء الدّحض وفق حكمةٍ بالغة مفادها أنّ الدّحض يبدأ بالأقرب تناولاً والأوضح عَواراً فالّذي يليه، وهكذا. وبإذن الله تعالى سيكون دحض السّورة الكريمة لافتراءات الكافرين واقتراحاتهم ميدان الشّقّ الآخر من هذه الدّراسة.

٨- مما اتّسمت به سورة الفرقان المكّيّة الكريمة، رغم انّها سورةٌ كريمةٌ غير كثيرة عدد الآيات الكريمات، أنّها اشتملت على عددٍ من الآيات الكريمات الّتي جاءت فيها ألفاظٌ جرى استعمالها وفق طرائق العرب في استعمالها لتلك الألفاظ، دليلاً على أنّ القرآن الكريم لم يلو للّغة العربيّة عنقا، ولم يرغمها على السّير في غير الخطّ الّذي ترتضيه. وبعض معاني تلك الاستعمالات قريب التّناول.ومن ذلك استعمال لفظة مقبل في الآية الكريمة الرّابعة والعشرين. قال عزّ من قائل:﴿ أصحاب الجنّة يومئذٍ خيرٌ مستقرّاً وأحسن مقيلا﴾ والمستقرّ مكان الاستقرار. والمقيل زمان الاستراحة وقت القيلولة، بمعنى الظّهيرة ونصف النهار، وإن لم يكن ثمّة نوم[2] والمعروف أنّ الجنّة ليس فيها شمسٌ أصلاً، وأنّ ظلّها ممدود. وقد جاء في حقّ أصحاب اليمين قول الحقّ جلّ وعلا في سورة الواقعة[1]:﴿ وأصحاب اليمين ماأصحاب اليمين.في سدرٍ مخضود.وطَلْحٍ منضود.وظلٍّ ممدود﴾ إنّ معنى الآية

---

[1] سورة الفرقان ٣٢.

[2] انظر -مثلاً- لسان العرب:"قيل"

[1] الآيات ٢٧-٣٠.

الكريمة. والله تعالى أعلم: أصحاب الجنّة يوم القيامة خيرٌ من أصحاب النّار مكاناً وزماناً. ولمّا كانت القائلة ترتبط في ذهن العربيّ الّذي نزل القرآن الكريم بلسانه، بالحرارة الشّديدة وقت الظّهيرة وفي نفسه بالمتعة للرّاحة في ذلك الوقت، فقد استعملت الآية الكريمة لفظة:" مقيلا" في حقّ أصحاب الجنّة، لقدرة هذه اللّفظة على الدّلالة على الرّاحة الجسديّة والنّفسيّة للعربيّ الّذي نزل القرآن الكريم بلسانه حينما ينام في الظّهيرة، أو يرتاح وإن لم يكن نوم.

ومن تلك المعاني معنى القول:﴿ قُرَّةَ أعين﴾ في قول الحقّ جلّ وعلا[٢]:﴿ والّذين يقولون ربّنا هب لنا من أزواجنا وذرّيّاتنا قرّةَ أعينٍ واجعلنا للمتّقين إماما﴾ قيل أصله من القُرّ، بضمّ القاف، أي البرد. فقرّت عينه، قيل معناه بَرَدَتْ فصّحت[٣] وإليك هذه المجموعة من النّصوص المقتبسة حول هذا المعنى من لسان العرب[٤]:" القُرّ: البرد عامّة، بالضمّ.....وقَرَّ يومُنا من القُرّ. وقُرَّ الرّجل: أصابه القُرّ....وأقرّ القوم: دخلوا في القُرّ...ومنه حديث حذيفة في غزوة الخندق: فلمّا أخبرته خبر القوم وقَرَرْتُ قَرِرْتُ، أي لمّا سكنت وجدت مسّ البرد...ويقال للثّائر إذا صادف ثأره: وقعت بقُرّك أي صادف فؤادُك ما كان متطلّعاً إليه.....والقُرّة: كلّ شيءٍ قرّت به عينك. والقُرّة: مصدر قرّت العين قُرّة. وفي التّنزيل العزيز[١] :﴿ فلا تعلم نفسٌ ماأخفي لهم من قرّة أعين﴾ ....وفي حديث الاستقساء: لو رآك لقرّت عيناه، أي لسُرَّ بذلك وفرح....وحقيقته أبرد الله دمعة عينيه لأنّ دمعة الفرح باردة. وقيل: أقرّ الله عينك أي بلّغك أمنِيّتك حتّى ترضى نفسك وتسكن

---

[٢] سورة الفرقان ٧٤.

[٣] مفردات الرّاغب الاصفهاني:" قرّ" ٥١٥/٢.

[٤] "قرر"

[١] سورة السّجدة ١٧.

عينك فلاتستشرف إلى غيره. ورجلٌ قرير العين. وقَرِرت به عيناً فأنا أَقَرّ" وجاء في مقاييس اللّغة[٢]:" القاف والرّاء أصلان صحيحان يدلّ أحدهما على برد....وقولهم: أقر الله عينه، زعم قومٌ أنّه من هذا الباب، وأنّ للسّرور دمعةً باردة، وللغمّ دمعةً حارّة، ولذلك يقال لمن يُدْعَى عليه: أسخن الله عينه".

ممّا سبق يفْهَم أنّ القول:﴿ قرّة العين﴾ معناه في المعنويّات سعادة النّفس، وانشراح الصّدر، ورضا الفؤاد، وبهجة القلب. وهذه المرحلة المعنويّة سبقتها مرحلةٌ حسّيّة. إنّ جزيرة العرب معروفةٌ بسمومها اللّافح في وقت الظّهيرة غالباً. وقد كانت العين تتأذّى بالحرارة الشّديدة والسّموم اللّافح. وقد انعكس ذلك على اللّغة في مثل القول لمن يُدْعى عليه: أسخن الله عينه. وحينما تسخن العين تستاء النّفس، وينقبض الصّدر، ويتألّم القلب. كما كانت العين ترتاح للبرودة وتصحّ بها. وقد انعكس ذلك على اللّغة كذلك في مثل القول: قرّة العين، والقول لمن يُدْعى له: أقرّ الله عينك. وحينما تبرد العين تبتهج النّفس، وينشرح الصّدر، ويسعد القلب.

وهكذا نكون بشأن القول:﴿ هب لنا من أزواجنا وذريّاتنا قرّة العين﴾ يعني برد العين بالهواء العليل والنّسيم البليل. ولمّا كان برد العين الّذي يرتبط به صحّتها في بلاد العرب له آثاره النّفسيّة الحسنة على نفسيّة العرب أفاد مثل هذا القول: قرّة العين وبرد الفؤاد سرورَ القلب وبهجةَ النّفس.

ومِنْ ذلك كذلك جملة:﴿ وقدمنا﴾ في قول الحقّ جلّ وعلا[١]:﴿ وقدمنا إلى ماعملوا من عملٍ فجعلناه هباءً منثورا﴾ لقد أحبط الله تعالى أعمال الكافرين الصّالحة بمقياس الإسلام من إكرام ضيف، ورعاية حقوق جار، وإغاثة ملهوف،

---

[٢] ٥/٧ "قرّ".

[١] سورة الفرقان ٢٣.

وما إلى ذلك، بسبب افتقارها إلى شرط الإخلاص. لقد جعل الله تعالى هباءً منثورا. والهباء هو مايُرى في ضوء الشّمس من الكوّة على هيئة الغبار. إنّ الهباء لافائدة منه، فكيف به وقد عبث الهواء وبدّده. وبشأن استعارة جملة:﴿ وقدمنا﴾ يقول الزّمخشري[٢] :" ليس ههنا قدومٌ ولا مايشبه القدوم، ولكن مُثّلت حال هؤلاء وأعمالهم الّتي عملوها في كفرهم من صلة رحم، وإغاثة ملهوف، وقرى ضيف، ومنٍّ على أسيرٍ وغير ذلك من مكارمهم ومحاسنهم، بحال قومٍ خالفوا سلطانهم واستعصوا عليه، فقدم إلى أشيائهم، وقصد إلى ماتحت أيديهم فأفسدها ومزّقها كلّ ممزّق، ولم يترك لهم أثراً ولاعِثْيَرَا[٣]" .

وبعض معاني تلك الاستعمالات بغيد التّناول.لقد جاء القول:﴿ وحِجْراً محجورا﴾ في الآية الكريمة الثّانية والشرين على لسان المشركين حينما يرون ملائكة العذاب يوم القيامة. قال تعالى:﴿ يوم يرون الملائكة لابُشْرَى يومئذٍ للمجرمين ويقولون حجراً محجورا﴾ كما جاء القول ذاته على لسان البحرين، العذب الفرات والملح الأجاج في الآية الكريمة الثّالثة والخمسين. قال تعالى:﴿ وهو الّذي مرج البحرين هذا عذبٌ فراتٌ وهذا ملحٌ أجاجٌ وجعل بينهما برزخاً وحجرا محجورا﴾ .

وبإذن الله تعالى ستكون الآيتان الكريمتان ميدان الشّقّ الآخر من هذه الدّراسة.

٩- من أهداف سورة الفرقان المكّيّة الكريمة تثبيت فؤاد المصطفى ﷺ. ويكون التّثبيت في العديد من الآيات الكريمات بطريقٍ غير مباشر. ومن هذه الآيات الكريمات قول الحقّ جلّ وعلا[١]:﴿ وكذلك جعلنا لكلّ نبيٍّ عدوّاً من المجرمين.

---

[٢] الكشّاف ٢/٤٠٥.

[٣] العِثْير، بكسر العين وسكون الثّاء وفتح الياء: العَجاج السّاطع والغبار. وفي المَثَل: مالها

[١] سورة الفرقان ٣١.

وكفى بربّك هادياً ونصيرا﴾ وقولُ الحقّ جلّ وعلا[٢]:﴿ أرأيت من اتّخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا. أم تَحْسَب أنّ أكثرهم يسمعون أو يعقلون. إن هم إلّا كالأنعام بل هم أضلّ سبيلا﴾ وقولُ الحقّ جلّ وعلا[٣]:﴿ ولو شئنا لبعثنا في كلّ قريةٍ نذيرا. فلاتطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيرا﴾ وقول الحقّ جلّ وعلا[٤]:﴿ وما أرسلناك إلّا مبشراً ونذيرا﴾ ويكون التّثبيت في الآية الكريمة الثّانية والثّلاثين بطريقٍ مباشر. قال عزّ من قائل:﴿ وقال الّذين كفروا لولا نُزِّل عليه القرآن جملةً واحدة. كذلك لنثبّت به فؤادك ورتّلناه ترتيلا﴾.

١٠- يكاد الإنذار يكون المحور الّذي تدور حوله السّورة الكريمة، والهدف الّذي يسعى إلى تحقيقه الحديث في موضوعات السّورة الكريمة. ويبدو ذلك جليّاً باستعراض الموضوعات الّتي تغلغل فيها الإنذار. تنصّ أولى آيات السّورة الكريمة على موضوعاتها وعلى الإنذار محورها. قال تعالى:﴿ تبارك الّذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا﴾ وكذلك يتجلّى الإنذار لكفّار مكّة في آخر آيات السّورة الكريمة. قال تعالى:﴿ قل مايعبأ بكم ربّي لولا دعاؤكم فقد كذّبتم فسوف يكون لزاما﴾ إنّ ربّ العزّة والجلال يأمر المصطفى ﷺ أن يقول لكفّار مكّة: إنّ ربّي جلّ وعلا لايعبأ بكم ولايكترث لولا عبادتكم له جلّ وعلا وحده لاشريك له. فبما أنّكم قد كذّبتم رسولي الكريم وكتابي العظيم فسوف يكون العذاب ملازماً لكم يوم القيامة.

وبعد أن تدحض السّورة الكريمة فوراً اتّهام الكافرين للقرآن الكريم بأنّه إفكٌ وأساطير الأوّلين، وبعد أن تعرض في أسلوب القرآن الكريم المعجز

---

[٢] سورة الفرقان ٤٣و٤٤.

[٣] سورة الفرقان ٥١و٥٢.

[٤] سورة الفرقان ٥٦.

لاعتراضات الكافرين واقتراحاتهم، وبعد أن تردّ على الفور على اتّهامهم للمصطفى ﷺ بأنّه رجلٌ مسحور، وتردّ على التّراخي على اقتراحهم أن يلقى عليه ﷺ كنزٌ أو أن تكون له جنّةٌ يأكل منها فلا يحتاج للعمل وطلب الرّزق، بعد ذلك كلّه تجيء مجموعةٌ من الآيات الكريمات في إنذار القوم. قال عزّ من قائل[1] :﴿ بل كذّبوا بالسّاعة وأعتدنا لمن كذّب بالسّاعة سعيرا. إذا رأتهم من مكانٍ بعيدٍ سمعوا لها تغيّظاً وزفيرا. وإذا ألقوا منها مكاناً ضيّقاً مقرّنين دعوا هنالك ثبورا. لاتدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيرا. قل أذلك خيرٌ أم جنّة الخلد الّتي وُعِدَ المتّقون كانت لهم جزاءً ومصيرا. لهم فيها مايشاءون خالدين. كان على ربّك وعداً مسئولاً. ويوم يحشرهم ومايعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلّوا السّبيل. قالوا سبحانك ماكان ينبغي لنا أن نتّخذ من دونك من أولياءَ ولكن متّعتهم وآباءهم حتّى نسوا الذّكر وكانوا قوماً بورا. فقد كذّبوكم بماتقولون فما تستطيعون صرفاً ولانصرا. ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيرا﴾.

وبعد سرد السّياق اقتراح الكافرين أن ينزل عليهم الملائكة أو أن يروا ربّهم جلّ وعلا، دليلاً على استكبارهم وعتوّهم، يجيء إنذارهم في قول الحقّ جلّ وعلا[1]:﴿ يوم يرون الملائكة لابشرى يومئذٍ للمجرمين ويقولون حِجْراً محجورا. وقَدِمنا إلى ماعملوا من عملٍ فجعلناه هباءً منثورا. أصحاب الجنّة يومئذٍ خيرٌ مستقرّاً وأحسن مقيلا. ويوم تشقّق السّماء بالغمام ونزّل الملائكة تنزيلا. الملك يومئذٍ الحقّ للرّحمن. وكان يوماً على الكافرين عسيرا. ويوم يَعَضّ الظّالم على

---

[1] سورة الفرقان ١١-١٩.

[1] سورة الفرقان ٢٢-٢٩.

يديه يقول ياليتني اتّخذت مع الرّسول سبيلا. ياوَيْلَتَى ليتني لم أتخذ فلاناً خليلا. لقد اضلّني عن الذّكر بعد إذ جاءني. وكان الشّيطان للإنسان خذولا﴾.

وبعد الرّدّ على اقتراح الكافرين نزولَ القرآن الكريم جملةً واحدةً لامفرَّقاً وتقرير مجيء القرآن الكريم بالحقّ الّذي يزهق الباطل والبيان النّاصع والحجّة البالغة يجيء قول الحقّ جلّ وعلا[٢]:﴿ الّذين يُحْشَرون على وجوههم إلى جهنّم أولئك شرٌّ مكاناً وأضلّ سبيلا﴾.

وبعد الحديث عن مجموعةٍ من الأمم الّتي دمّرها الله تعالى تدميراً يكون الحديث أخيراً عن قوم لوطٍ عليه السّلام الّذين يمرّ كفّار مكّة عليهم صباحاً ومساءً في سفرهم إلى الشّام ويكون الإنذار، قال عزّ من قائل[٣]:﴿ ولقد أتوا على القرية الّتي أُمْطِرَت مطر السَّوْء أفلم يكونوا يرونها. بل كانوا لايرجون نشورا. وإذا رأوك إن يتّخذونك إلّا هزواً أهذا الّذي بعث الله رسولا. عن كاد ليضلّنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها. وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضلّ سبيلا. أرأيت من اتّخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا. أم تَحْسَب أنّ أكثرهم يسمعون أو يعقلون. إن هم إلّا كالأنعام بل هم أضلّ سبيلا﴾.

وبعد حديث السّورة الكريمة عن عددٍ من الآيات الكونيّة الدّالّة على قدرة الله تعالى المطلقة مِنْ ظلٍّ ممدودٍ ومقبوض، وليلٍ ننام فيه، ونهارٍ نُبْعَث فيه، ورياحٍ، ومطرٍ يحي الله تعالى به البلاد والعباد، يجيء الحديث عن القرآن الكريم والنّبيّ العظيم ﷺ، ويغلب على الحديث طابع الإنذار. قال عزّ من قائل[١]:﴿

---

[٢] سورة الفرقان ٣٤.

[٣] سورة الفرقان ٤٠-٤٤.

[١] سورة الفرقان ٥٠-٥٢.

ولقد صرّفناه بينهم ليذّكروا فأبى أكثر النّاس إلّا كفورا. ولو شئنا لبعثنا في كلّ قريةٍ نذيرا. فلاتطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيرا﴾.

وبعد الحديث عن خلق الله تعالى البحرين العذب الفرات والملح الأجاج، وخلق الإنسان من ماء، يجيء الإنذار في قول الحقّ جلّ وعلا[٢]:﴿ ويعبدون من دون الله مالاينفعهم ولايضرّهم. وكان الكافر على ربّه ظهيرا. ومأرسلناك إلّا مبّشراً ونذيرا﴾ ومن البيّن أنّ الآية الكريمة الأخيرة تجمع بين التّبشير والإنذار، إيذاناً بجمع السّورة الكريمة بعد ذلك بينهما. وسبق أن أومأنا إلى أن آخر آيات السّورة الكريمة في إنذار الكافرين.

١١– الأمم الّتي دمّرها الله تعالى تدميراً خضع ترتيبها في السّورة الكريمة لحكمةٍ بالغة. لقد ابتدأ الحديث بقوم موسى عليه السّلام بسبب أوجه الشّبه القويّة بين ملابسات الدّعوتين المحمّديّة والموسويّة. إنّ كلاً من الرّسولين الكريمين من أولي العزم من الرّسل الخمسة، وهم، نوح، وغيرهم، وموسى، وعيسى، ومحمّد، صلوات الله تعالى وسلامه، عليهم أجمعين. وإنّ كلاً منهما قد آتاه الله تعالى كتاباً سماويّاً، التّوراة في حقّ موسى عليه السّلام، والقرآن الكريم في حقّ محمّد ﷺ. وإنّ كلّاً منهما لقي أشدّ العنت من قومه. ثمّ تحوّل الحديث إلى نوحٍ عليه السّلام، أوّل الرّسل، عليهم جميعاً صلوات الله تعالى وسلامه، ثمّ ذكر السّياق كلاً من عادٍ وثمود جرياً على عادة القرآن الكريم في الجمع بينهما. وقد فُهِم من تأخير أصحاب الرّسّ في الذّكر ومن تقديم قوم نوحٍ عليه السّلام في الذّكر أنّ أصحاب الرّسّ يتأخّرون عن الجميع زمناً. وكانت الإشارة إلى الأمم الأخرى على جهة الإجمال في قول الحقّ جلّ وعلا في الآية الكريمة الثامنة والثّلاثين:﴿ وعاداً وثمود وأصحاب الرّسّ وقروناً بين ذلك كثيرا﴾ وقد كان قوم لوط عليه

---

[٢] سورة الفرقان ٥٥و٥٦.

السّلام آخر الأمم الّتي نصّ عليها السّياق، كما نصّ على عدم اتّعاظ كفّار مكّة بقرى قوم لوطٍ عليه السّلام الّتي انقلبت رأساً على عقب، والّتي يمرّ عليها كفّار مكّة في سفرهم مصبحين وبالّليل. وحينما ننظر إلى الأمم الّتي نصّت عليها السّورة الكريمة نتبيّن أنّ ديار ثمود وقرى قوم لوطٍ عليه السّلام تتضمّن كلٌّ منهما آثاراً باقية. ولمّا كانت ثمود قد مرّ ذكرها مع عاد، فقد بقيت قرى لوطٍ كي يتّعظ بها كفّار مكّة، ولهذا جاء ذكرها آخرا. والمعروف أنّ كفّار مكّة لم يتّعظوا بقرى قومٍ لوطٍ أيضاً.

جاء في الآية الكريمة الأربعين قول الحقّ جلّ وعلا:﴿ ولقد أتوا على القرية الّتي أُمْطِرَت مَطَرَ السَّوْء أَفَلَمْ يكونوا يرونها. بل كانوا لايرجون نشورا﴾

١٢- إنّ كفّار مكّة لم يتّعظوا بما حلّ بالأمم المكذّبة السّابقة من هلاك. وإنّ السّياق ليتحوّل إلى مجموعةٍ من آيات الله تعالى الكونيّة كي يتّعظ بها الكافرون فيتحدّث عنها كما يتحدّث عن آية المصطفى ﷺ الكبرى، ومعجزته العظمى، وسلاحه الأمضى، وجيشه الأقوى، ألا وهو القرآن الكريم. إنّ السّياق يتحدّث عن الظّلّ قبل طلوع الشّمس، الّذي يسلمنا إلى الّليل. وإنّ ذكر الّليل اللّباس للنّاس، يستدعى ذكر النّهار النّشور لهم. إنّ للشّمس علاقتها بالّليل والنّهار. وإنّ للشّمس والّليل والنّهار علاقتها بالسّحب الّتي تحملها الرّياح وتلقحها فينزل بإرادة الله تعالى من السّماء الماء العذب الطّهور. وهل المطر سوى الأبخرة الّتي تحملها الرّياح، وتسوقها، وتكوّن منها السّحب في طبقات الجوّ العليا الباردة، وتلقحها ليلاً أو نهاراً، فترى أيّها الإنسان الماء يخرج من خِلال السّحاب، وبذلك تعود الأبخرة ماءً كما كانت.

وكما كان الحديث عن الماء الحلو الطّاهر في نفسه المطهّر لغيره باعتباره عماد حياة الأبدان، كان الحديث عن القرآن الكريم عماد حياة الأرواح بجامع نزول كلٍّ من ماء الأبدان وماء الأرواح من السّماء.

وإنّ الحديث عن الماء العذب الفرات استدعى الحديث عن الماء المِلْح الأجاج. فالله سبحانه وتعالى هو الّذي أرسل البحرين، العذب الفرات والملح الأجاج، وجعل بينهما حاجزاً يمنع كلًّا منهما من أن يطغى على الآخر.

ولمّا كان الإنسان هو الهدف من ذكر كلّ هذه الآيات البيّنات الدّالّة على القدرة المطلقة للذّات العليّة فقد كان الحديث أخيراً عن هذا الإنسان. ولمّا كان الحديث يبرز فيه الجانب المائيّ بوضوح، فثمّة الماء الطّهور، والماء العذب الفرات مطلقاً، والماء الملح الأجاج، فقد كان الحديث عن الإنسان من زاوية كونه ماءً يخرج من بين الصُّلب والتّرائب. والمعروف أنّ خلق الله تعالى الإنسان من ماءٍ يمثّل الصّورة الغالبة من بين الصّور الأربع الّتي خلق الإنسان من ذكرٍ وأنثى. أمّا الصّور الثّلاث الأخر فإنّها مفردة. فآدم عليه السّلام خلقه الله تعالى من طين، فليس ثمّة ذكرٌ ولا أنثى. وحوّاء عليها السّلام خلقها الله تعالى من ضِلَع آدم عليه السّلام، فثمّة ذكرٌ ولا أنثى. وعيسى عليه السّلام خلقه الله تعالى من مريم البتول، فثمّة أنثى ولا ذكر.

وعلى الرّغم من كلّ هذه الآيات البيّنات فإنّ الكافرين يصرّون على كفرهم. جاء تعقيباً على هذه الآيات الدّالّة على القدرة المطلقة للذّات العليّة قول الحقّ جلّ وعلا[1]:﴿ ويعبدون من دون الله مالاينفعهم ولايضرّهم. وكان الكافر على ربّه ظهيرا﴾.

---

[1] سورة الفرقان ٥٥.

١٣- بشأن الآيتين الكريمتين اللّتين تتحدّثان عن الظّلّ، قال تعالى[٢]:﴿ ألن تر إلى ربّك كيف مدّ الظّلّ ولو شاء لجعله ساكناً ثمّ جعلنا الشّمس عليه دليلاً. ثمّ قبضناه إلينا قبضاً يسيرا﴾ أشرْنا إلى أنّ الآيتين الكريمتين تتحدّثان عن ثلاثة أنواعٍ من الظّلال. الظّلّ الممدود قبل طلوع الشّمس. والدّليل على ذلك ظلّ الجنّة الممدود وليس في الجنّة شمس. قال عزّ من قائل عن اصحاب اليمين في سورة الواقعة[٣]:﴿ وأصحاب اليمين ما أصحا اليمين. في سِدرٍ مخضود. وطلح منضود. وظلٍّ ممدود﴾ وعن الظّلّ الّتي تدلّ الشّمس عليه نهاراً. وعن الظّلّ المقبوض بيد القدرة الإلهيّة بعد غروب الشّمس.

إنّا لم نتّفق مع الّذي ذهب إلى أنّ الآيتين الكريمتين تتحدّثان عن نوعٍ واحدٍ من الظّلّ هو الّذي تدل الشّمس عليه نهاراً. وإنّ من أدلّتنا على عدم الاتّفاق أنّ جملة:"مدّ" في الآية الكريمة تدلّ على الامتداد. والمعروف أنّ الظّلّ بعد طلوع الشّمس يتقلّص بارتفاع الشّمس ولايمتدّ. ثمّ إنّ الحديث عن كلّ أنواع الظّلّ، مظهرٌ من مظاهر الشّمول، الّذي هو بدروه مظهرٌ من مظاهر إعجاز القرآن الكريم.

١٤- بشأن الآية الكريمة الخمسين الّتي تسبقها آيتان كريمتان تتحدّثان عن إنزال الله تعالى من السّماء ماءً طهوراً اختلف العلماء بشأنها. فمن العلماء من ذهب إلى أنّها امتدادٌ للحديث عن الماء، فالله تعالى صرّف الماء بين النّاس ليذّكّروا فأصرّوا على الكفر، ومن العلماء من ذهب إلى أنّها تتحدّث عن القرآن الكريم بسبب وضوح المعنى ولكثرة حديث السّورة الكريمة عن القرآن الكريم ،

---

[٢] الآيات ٢٧-٣٠.

[٣] سورة الفرقان ٤٥,٤٦.

وبذلك تكون الآية الكريمة أولى آياتٍ كريماتٍ ثلاث تتحدّث عن القرآن الكريم، الجيش الأكبر للمصطفى ﷺ والسّلاح الأمضى. وهذه هي الآيات الكريمات الخمس. قال عزّ من قائل[1]:﴿ وهو الّذي أرسل الرّياح بُشْراً بين يدي رحمته. وأنزلنا من السّماء ماءً طهورا. لنحيي به بلدةً مَيْتاً ونسقيه ممّا خلقنا أنعاماً وأناسيّ كثيرا. ولقد صرّفناه بينهم ليذّكّروا فأبى أكثر النّاس إلّا كفورا. ولو شئنا لبعثنا في كلّ قريةٍ نذيرا. فلاتطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً﴾

ومعنى الآيات الكريمات بإيجاز: إنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذي أرسل الرّياح مبشراتٍ بين يدي رحمته بنزول المطر من السحاب، وهو الّذي أنزل من السّماء ماءً طاهراً في نفسه مطهّراً لغيره، ليحيي بذلك الماء مكاناً ميتاً ويمكّن من شاء ممّا خلق من البهائم ومن النّاس أن ينتفعوا بذلك الماء وقت الحاجة إليه. ولقد صرّف عزّ وجلّ ذلك الماء(وفق رأي فريقٍ من العلماء) بينهم ليذّكّر النّاس فأبى أكثرهم إلّا كفورا. ووفق رأي الفريق الآخر من العلماء) ولقد صرّفنا القرآن الكريم بين النّاس ونوّعنا التّعبير فيه من وعدٍ ووعيدٍ وقَصصٍ وحِكم وأمثالٍ وأحكام وما إلى ذلك ليتّعظ النّاس ويعتبروا فأبى أَكثَرهم إلّا كفورا.

ولو شئنا يامحمّد لبعثنا في كلّ قريةٍ نذيرا، ولكنّا لم نشأ فلم نفعل، فأنت يامحمّد خاتم النّبيّين، وأشرف المرسلين، ورحمة الله تعالى للعالمين، فلا تطع يامحمّد الكافرين، وجاهدهم بهذا القرآن الكريم جهاداً كبيراً، فإنّه جيشك الأكبر، وسلاحك الأعظم.

ونحن مع الفريق من العلماء الّذي ذهب إلى أنّ الآية الكريمة تتحدّث عن القرآن الكريم وليس عن الماء. وثمّة أسبابٌ وراء الأخذ بهذا الرّأي، والله تعالى

---

[1] سورة الفرقان ٤٨-٥٢.

أعلم، وهذه هي الآية الكريمة. قال تعالى:﴿ ولقد صرّفناه بينهم ليّذّكروا فأبى أكثر النّاس إلّا كفورا﴾ وهذه هي الأسباب [1] بإيجاز:

أ–حينما نقارن بين القرآن الكريم من ناحية، وبين المطر من ناحيةٍ أخرى، من حيث القدرة الأكبر والأسهل على التّذكير، فغنّ المقارنة تنتهي إلى أنّ تلك القدرة من نصيب القرآن الكريم.

ب–حينما نقارن بين القرآن الكريم من ناحية، وبين المطر من ناحيةٍ أخرى، من حيث القابليّة من نصيب القرآن الكريم. وبهذه المناسبة نقرّر أنّه ليس ثمّة إشارةٌ واحدةٌ في القرآن الكريم إلى تصريف المطر، بينما الإشارات كثيرةٌ إلى تصريف الله تعالى الآيات، ومنها ماجاء فيه النّصّ الصّريح على القرآن الكريم، كما أنّ التّذييل الّذي جاء في آية سورة الفرقان جاء في إحدى تلك الآيات الكريمات، وهي الآية الكريمة التّاسعة والثّمانون من سورة الإسراء الكريمة المكيّة. قال عزّ من قائل[2]:﴿ ولقد صرّفنا للنّاس في هذا القرآن من كلّ مثلٍ فأبى أكثر النّاس إلا كفورا﴾ وقال تعالى[1]:﴿ ولقد صرّفنا في هذا القرآن ليذّكّروا ومايزيدهم إلّا نفورا﴾ وقال تعالى[2]:﴿ وكذلك أنزلناه قرآناً عربيّاً وصرّفنا فيه من الوعيد لعلّهم يتّقون أو يحدث لهم ذكرا﴾

ج– جاء في الآية الكريمة الّتي نحن بصددها ضمير جماعة العقلاء في القول:﴿ بينهم﴾ لأنّ العقلاء هم المكلّفون وهم الّذين يتذكّرون. قال تعالى:﴿ ولقد

---

[1] ذكرنا هذه الأسباب بإسهاب في كتبنا: تأمّلات في سورة الفرقان ١٦٥–١٧٠ من الطّبعة الثّانية، مكّة المكرّمة ١٤١٤هـ ١٩٩٣م.

[2] سورة الإسراء ٨٩.

[1] سورة الإسراء ٤١.

[2] سورة طه ١١٣.

صرّفناه بينهم ليذّكّروا﴾ بينما جاء في الآية الكريمة السّابقة اسم الموصول لغير العقلاء في القول:﴿ ممّا خلقنا﴾ تمشّيا مع تقديم الآية الكريمة في الذّكر غير العقلاء:﴿أنعاماً﴾ قال تعالى:﴿ لنحيي به بلدةً ميتاً ونُسْقِيه ممّا خلقنا أنعاما وأناسيّ كثيرا﴾

د–التّحوّل من المحسوس على المعنويّ، لوجود قرينةٍ تهيّء لذلك، مظهرٌ من مظاهر إعجاز القرآن الكريم. ففي سورة النّحل الكريمة مَثَلاً، يتمّ التحوّل من لفظة سبيل المحسوسة المتعدّدة حقيقةً، والّتي تسير فيها الأنعام، والمفهومة ضمناً من السّياق، إلى سبيل الهدى الواحدة الّتي يهدي الله تعالى إليها من يشاء من عباده. ومن هذه السّبيل المعنويّة ماهو حائدٌ عن الاستقامة. قال تعالى[٣]:﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفءٌ ومنافع ومنها تأكلون. ولكم فيها جمالٌ حين تريحون وحين تسرحون. وتحمل أثقالكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه إلّا بشقّ الأنفس. إنّ ربّكم لرءوفٌ رحيم. والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينةز ويخلق مالاتعلمون. وعلى الله قصد السّبيل ومنها جائر. ولو شاء لهداكم أجمعين﴾ وفي سورة الأعراف الكريمة يتمّ التّحوّل من اللّباسين السّابقين. قال تعالى[١]:﴿ يابني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم وريشاً. ولباس التّقوى ذلك خير. ذلك من آيات الله لعلّهم يذّكّرون﴾ وفي سورة البقرة الكريمة يتمّ التّحوّل من الأمر بالتّزوّد بالزّاد في أثناء السّفر لأداء فريضة الحجّ، إلى الأمر بالتّزوّد بالتذقوى في أثناء السّفر إلى الله تعالى. قال عزّ من قائل[٢]:﴿ الحجّ أشهرٌ معلومات. فمن فرض فيهنّ الحجّ فلا رفث ولا فسوق ولاجدال في الحجّ.

---

[٣] سورة النّحل ٥–٩.

[١] سورة الأعراف ٢٦.

[٢] سورة البقرة ١٩٧.

وماتفعلوا من خيرٍ يعلمه الله. وتزوّدوا فإنّ خير الزّاد التّقوى. واتّقون ياأولي الألباب﴾

هـ- القرآن الكريم الّذي أنزله الله تعالى على المصطفى ﷺ أحد موضوعات السّورة الكريمة الّتي أشارت إليها أولى آيات السّورة الكريمة. والآية الكريمة الّتي نحن بصددها إحدى آياتٍ كريماتٍ ثلاث تتحدّث عن القرآن الكريم والرّسول العظيم، صلوات الله وسلامه عليه. وإنّ ضمير المفرد الغائب من القول:﴿ به ﴾ في الآية الكريمة الثّالثة، يعود بإجماع العلماء على القرآن الكريم، وهو ذات الضمير في القول:﴿ ولقد صرّفناه﴾ وإنّ عودة الضّمير في الآية الكريمة الثّالثة على القرآن الكريم الّذي لم يجر له ذكرٌ صريح، قوّةً للرّأي بعودة الضّمير ذاته في الآية الكريمة الأولى على القرآن الكريم. وهذه هي الآيات الكريمات الثّلاث. قال تعالى:﴿ ولقد صرّفناه بينهم ليذّكّروا فأبى أكثر النّاس إلّا كفورا. ولو شئنا لبعثنا في كلّ قريةٍ نذيرا. فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيرا﴾

وإنّ رجوع الضّمير في قول الحقّ جلّ وعلا:﴿ولقد صرّفناه بينهم﴾ إلى القرآن الكريم، يشدّ الآية الكريمة الّتي فيها هذا القول إلى الآيتين الكريمتين التّاليتين شدّاً وثيقاً. ويتأكّد هذا المعنى حينما نفسّر الآيات الكريمات الثّلاث وفق هذا الرّاي. إنّ المعنى-والله تعالى أعلم- ولقد صرّفنا القرآن الكريم بين النّاس، من وعدٍ، ووعيد، وقصص، وحِكَمٍ، وأحكامٍ، وأمثال، وما إلى ذلك، ليتّعظوا ويعتبروا، فأبى أكثر النّاس إلّا نفوراً بقلوبهم، وفراراً بأجسادهم. ولو شئنا يامحمّد لبعثنا في كلّ قرية نذيراً، ولكنّا لم نشأ، وأرسلناك يامحمّد للنّاس كافّةً بشيراً ونذيرا، فلا تطع يامحمّد الكافرين عموماً، وجاهدهم بهذا القرآن الكريم جهاداً كبيراً، فإنّه جيشك الأعظم، وسلاحك الأمضى.

١٥- إذا كان الإنذار يغلب على السّورة الكريمة حتّى الآية الكريمة الخامسة والخمسين في قول الحقّ جلّ وعلا:﴿ ويعبدون من دون الله مالاينفعهم ولايضرّهم. وكان الكافر على ربّه ظهيرا﴾تمشّياً مع الإنذار الّذي اكتفت بذكره أولى آيات السّورة الكريمة، فإنّ للعالمين نذيرا﴾ وكذلك يتجلّى الإنذار لكفّار مكّة في آخر آيات السّورة الكريمة. قال تعالى﴿ قل ما يعبأ بكم ربّي لولا دعاؤكم فقد كذّبتم فسوف يكون لزاما﴾ إنّ ربّ العزّة والجلال يأمر المصطفى ﷺ أن يقول لكفّار مكّة: إنّ ربّي جلّ وعلا وحده لاشريك له. فبما أنّكم قد كذّبتم رسولي الكريم وكتابي العظيم فسوف يكون العذاب ملازماً لكم يوم القيامة.

وبعد أن تدحض السّورة الكريمة فوراً اتّهام الكافرين للقرآن الكريم بأنّه إفكٌ وأساطير الأوّلين، وبعد أن تعرض في أسلوب القرآن الكريم المعجز لاعتراضات الكافرين واقتراحاتهم،وبعد أن تردّ على الفور على اتّهامهم للمصطفى ﷺ بأنّه رجلٌ مسحور، وتردّ على التّراخي على اقتراحهم أن يلقى عليه ﷺ كنزٌ أو أن تكون له جنّةٌ يأكل منها فلا يحتاج للعمل وطلب الرّزق، بعد ذلك كلّه تجيء مجموعةٌ من الآيات الكريمات في إنذار القوم. قال عزّ من قائل[١] :﴿ بل كذّبوا بالسّاعة وأعتدنا لمن كذّب بالسّاعة سعيرا. إذا رأتهم من مكانٍ بعيدٍ سمعوا لها تغيّظاً وزفيرا. وإذا ألقوا منها مكاناً ضيّقاً مقرّنين دعوا هنالك ثبورا. لاتدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيرا. قل أذلك خيرٌ أم جنّة الخلد الّتي وُعِد المتّقون كانت لهم جزاءً ومصيرا. لهم فيها مايشاءون خالدين. كان على ربّك وعداً مسئولاً. ويوم يحشرهم ومايعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلّوا السّبيل. قالوا سبحانك ماكان

---

[١] سورة الفرقان ١١-١٩.

ينبغي لنا أن نتّخذ من دونك من اولياءَ ولكن متّعتهم وآباءهم حتّى نسوا الذّكر وكانوا قوماً بورا. فقد كذّبوا بما تقولون فما تستطيعون صرفاً ولانصرا. ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيرا﴾.

وبعد سرد السّياق اقتراح الكافرين أن ينزل عليهم الملائكة أو أن يروا ربّهم جلّ وعلا، دليلاً على استكبارهم وعتّوهم، يجيء إنذارهم في قول الحقّ جلّ وعلا:﴿ يوم يرون الملائكة لابشرى يومئذٍ للمجرمين ويقولون حِجْراً محجورا. وقَدِمنا إلى ماعملوا من عملٍ فجعلناه هباءً منثورا. أصحاب الجنّة يومئذٍ خيرٌ مستقرّاً وأحسن مقيلا. ويوم تشقّق السّماء بالغمام ونزّل الملائكة تنزيلا. الملك يومئذٍ الحقّ للرّحمن. وكان يوماً على الكافرين عسيرا. ويوم يَعَضّ الظّالم على يديه يقول ياليتني اتّخذت مع الرّسول سبيلا. ياوَيْلَتَى ليتني لم أتّخذ فلاناً خليلا. لقد أضلّني عن الذّكر بعد إذ جاءني. وكان الشّيطان للإنسان خذولا﴾.

وبعد الرّدّ على اقتراح الكافرين نزولَ القرآن الكريم جملةً واحدةً لامفرّقاً وتقرير مجيء القرآن الكريم بالحقّ الّذي يزهق الباطل والبيان النّاصع والحجّة البالغة يجيء قول الحقّ جلّ وعلا[1]:﴿ الّذين يُحْشَرون على وجوههم إلى جهنّم أولئك شرٌّ مكاناً وأضلّ سبيلا﴾

وبعد الحديث عن مجموعةٍ من الأمم الّتي دمّرها الله تعالى تدميراً يكون الحديث أخيراً عن قوم لوطٍ عليه السّلام الّذين يمرّ كفّار مكّة عليهم صباحاً ومساءً في سفرهم إلى الشّام ويكون الإنذار، قال عزّ من قائل[2]:﴿ ولقد أتوا على القرية الّتي أُمْطِرَت مطر السَّوْء أفلم يكونوا يرونها . بل كانوا لايرجون نشورا. وإذا رأوك إن يتّخذونك إلّا هزوا أهذا الّذي بعث الله رسولا. إن كاد

---

[1] سورة الفرقان ٣٤.

[2] سورة الفرقان ٤٠-٤٤.

ليضلّنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها. وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضلّ سبيلا. أرأيت من اتّخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا. أم تَحْسَب أنّ أكثرهم يسمعون أو يعقلون. إن هم إلّا كالأنعام بل هم أضلّ سبيلا﴾.

وبعد حديث السّورة الكريمة عن عددٍ من الآيات الكونيّة الدّالّة على قدرة الله تعالى المطلقة مِنْ ظلٍّ ممدودٍ ومقبوض، وليلٍ ننام فيه، ونهارٍ نُبْعَث فيه، ورياحٍ، ومطرٍ يحي الله تعالى به البلاد والعباد، يجيء الحديث عن القرآن الكريم والنّبيّ العظيم ﷺ، ويغلب على الحديث طابع الإنذار. قال عزّ من قائل[٣]:﴿ ولقد صرّفناه بينهم ليذّكروا فأبى أكثر النّاس إلّا كفورا. ولو شئنا لبعثنا في كلّ قريةٍ نذيرا. فلاتطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيرا﴾ .

وبعد الحديث عن خلق الله تعالى البحرين العذب الفرات والملح الأجاج، وخلق الإنسان من ماء، يجيء الإنذار في قول الحقّ جلّ وعلا[٤]:﴿ ويعبدون من دون الله مالاينفعهم ولايضرّهم. وكان الكافر على ربّه ظهيرا. ومأرسلناك إلّا مبشّراً ونذيرا﴾ ومن البيّن أنّ الآية الكريمة الأخيرة تجمع بين التّبشير والإنذار، إيذاناً بجمع السّورة الكريمة بعد ذلك بينهما. وسبق أن أومأنا إلى أنّ آخر آيات السّورة الكريمة في إنذار الكافرين.

١١- الأمم الّتي دمّرها الله تعالى تدميراً خضع ترتيبها في السّورة الكريمة لحكمةٍ بالغة. لقد ابتدأ الحديث بقوم موسى عليه السّلام بسبب أوجه الشّبه القويّة بين ملابسات الدّعوتين المحمّديّة والموسويّة. إنّ كلاً من الرّسولين الكريمين من أولي العزم من الرّسل الخمسة، وهم، نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمّد، صلوات الله تعالى وسلامه، عليهم أجمعين. وإنّ كلّاً منهما قد آناه الله تعالى كتاباً

---

[٣] سورة الفرقان ٥٠-٥٢.

[٤] سورة الفرقان ٥٥و٥٦.

سماوياً، التّوراة في حقّ موسى عليه السّلام، والقرآن الكريم في حقّ محمّد ﷺ. وإنّ كلاً منهما لقي أشدّ العنت من قومه. ثمّ تحوّل الحديث إلى نوحٍ عليه السّلام، أوّل الرّسل، عليهم جميعاً صلوات الله تعالى وسلامه، ثمّ ذكر السّياق كلًّا من عادٍ وثمود وأصحاب الرّسّ. وقد تمّ الجمع بين عادٍ وثمود جرياً على عادة القرآن الكريم في الجمع بينهما. وقد فُهِم من تأخير أصحاب الرّسّ في الذّكر ومن تقديم قوم نوحٍ عليه السّلام في الذّكر أنّ أصحاب الرّسّ يتأخرون عن الجميع زمناً. وكانت الإشارة إلى الأمم الأخرى على جهة الإجمال في قول الحقّ جلّ وعلا في الآية الكريمة الثامنة والثّلاثين:﴿ وعاداً وثمود وأصحاب الرّسّ وقروناً بين ذلك كثيرا﴾ وقد كان قوم لوط عليه السّلام آخر الأمم الّتي نصّ عليها السّياق، كما نصّ على عدم اتّعاظ كفّار مكّة بقرى قوم لوطٍ عليه السّلام الّتي انقلبت رأساً على عقب، والّتي يمرّ عليها كفّار مكّة في سفرهم مصبحين وبالّليل. وحينما ننظر إلى الأمم الّتي نصّت عليها السّورة الكريمة نتبيّن أنّ ديار ثمود وقرى قوم لوطٍ عليه السّلام تتضمّن كلٌّ منهما آثاراً باقية. ولمّا كانت ثمود قد مرّ ذكرها مع عاد، فقد بقيت قرى قوم لوطٍ كي يتّعظ بها كفّار مكّة، ولهذا جاء ذكرها آخرا. والمعروف أنّ كفّار مكّة لم يتّعظوا بقرى قومٍ لوطٍ أيضاً.

جاء في الآية الكريمة الأربعين قول الحقّ جلّ وعلا:﴿ ولقد أتوا على القرية الّتي أُمْطِرَت مَطَرَ السَّوْء أَفَلَمْ يكونوا يرونها. بل كانوا لايرجون نشورا﴾.

١٢- إنّ كفّار مكّة لم يتّعظوا بما حلّ بالأمم المكذّبة السّابقة من هلاك. وإنّ السّياق ليتحوّل إلى مجموعةٍ من آيات الله تعالى الكونيّة كي يتعظّ بها الكافرون فيتحدّث عنها كما يتحدّث عن آية المصطفى ﷺ الكبرى، ومعجزته العظمى، وسلاحه الأمضى، وجيشه الأقوى، ألا وهو القرآن الكريم. إنّ السّياق يتحدّث

عن الظّلّ قبل طلوع الشّمس، وعن الظّلّ الّذي تدلّ عليه الشّمس، وعن الظّلّ بعد غروب الشّمس، الّذي يسلمنا إلى اللّيل. وإنّ ذكر اللّيل اللّباس للنّاس، يستدعي ذكر النّهار النّشور لهم. إنّ للشّمس علاقتها باللّيل والنّهار. وإنّ للشّمس واللّيل والنذهار علاقتها بالسّحب الّتي تحملها الرّياح وتلقحها فينزل بإرادة الله تعالى من السّماء الماء العذب الطّهور. وهل المطر سوى الأبخرة بفعل الشّمس نهاراً في المقام الأوّل[٥] تلك الأبخرة الّتي تحملها الرّياح، وتسوقها، وتكوّن منها السّحب في طبقات الجوّ العليا الباردة، وتلقحها ليلاً أو نهاراً، فترى أيّها الإنسان الماء يخرج من خِلال السّحاب، وبذلك تعود الأبخرة ماءً كما كانت.

وكما كان الحديث عن الماء الحلو الطّاهر في نفسه المطهّر لغيره باعتباره عماد حياة الأبدان، كان الحديث عن القرآن الكريم عماد حياة الأرواح بجامع نزول كلٍّ من ماء الأبدان وماء الأرواح من السّماء.

وإنّ الحديث عن الماء العذب الفرات استدعى الحديث عن الماء المِلْح الأجاج. فالله سبحانه وتعالى هو الّذي أرسل البحرين، العذب الفرات والملح الأجاج، وجعل بينهما حاجزاً يمنع كلًّا منهما من أن يطغى على الآخر.

ولمّا كان الإنسان هو الهدف من ذكر كلّ هذه الآيات البيّنات الدّالّة على القدرة المطلقة للذّات العليّة فقد كان الحديث أخيراً عن هذا الإنسان. ولمّا كان الحديث يبرز فيه الجانب المائيّ بوضوح، فثمّة الماء الطّهور، والماء العذب الفرات مطلقاً، والماء الملح الأجاج. فقد كان الحديث عن الإنسان من زاوية كونه ماءً يخرج من بين الصُّلب والتّرائب. والمعروف أنّ خلق الله تعالى الإنسان من ماءٍ يمثّل الصّورة الغالبة من بين الصّور الأربع الّتي خلق الله تعالى فيها جنس الإنسان. وهذه الصّورة الغالبة هي الّتي تمّ فيها خلق الإنسان من ذكرٍ وأنثى.

أمّا الصّور الثّلاث الأخر فإنّها مفردة. فآدم عليه السّلام خلقه الله تعالى من طين، فليس ثمّةٌ ذكرٌ ولا أنثى. وحوّاء عليها السّلام خلقها الله تعالى من ضِلَع آدم عليه السّلام، فثمّة ذكرٌ ولا أنثى. وعيسى عليه السّلام خلقه الله تعالى من مريم البتول، فثمّة أنثى ولا ذكر.

وعلى الرّغم من كلّ هذه الآيات البيّنات فإنّ الكافرين يصرّون على كفرهم. جاء تعقيباً على هذه الآيات الدّالّة على القدرة المطلقة للذّات العليّة قول الحقّ جلّ وعلا[1]:﴿ ويعبدون من دون الله مالاينفعهم ولايضرّهم. وكان الكافر على ربّه ظهيرا﴾.

١٣- بشأن الآيتين الكريمتين اللّتين تتحدّثان عن الظّلّ، قال تعالى[2]:﴿ ألم تر إلى ربّك كيف مدّ الظّلّ ولو شاء لجعله ساكناً ثمّ جعلنا الشّمس عليه دليلاً. ثمّ قبضناه إلينا قبضاً يسيرا﴾ أشرْنا إلى أنّ الآيتين الكريمتين تتحدّثان عن ثلاثة أنواعٍ من الظّلال. الظّلّ الممدود قبل طلوع الشّمس. والدّليل على ذلك ظلّ الجنّة الممدود وليس في الجنّة شمس. قال عزّ من قائل عن أصحاب اليمين في سورة الواقعة[1]:﴿ وأصحاب اليمين ماأصحاب اليمين. في سِدْرٍ مخضود. وطلحٍ منضود. وظلٍّ ممدود﴾ وعن الظّلّ الّتي تدلّ الشّمس عليه نهارا. وعن الظّلّ المقبوض بيد القدرة الإلهيّة بعد غروب الشّمس.

إنّا لم نتّفق مع الّذي ذهب إلى أنّ الآيتين الكريمتين تتحدّثان عن نوعٍ واحدٍ من الظّلّ هو الّذي تدل الشّمس عليه نهاراً. وإنّ من أدلتنا على عدم الاتّفاق أنّ جملة:"مدّ" في الآية الكريمة تدلّ على الامتداد. والمعروف أنّ الظّلّ بعد

---

[1] سورة الفرقان٥٥.

[2] سورة الفرقان ٤٥,٤٦.

[1] الآيات ٢٧-٣٠.

طلوع الشّمس يتقلّص بارتفاع الشّمس ولايمتدّ. ثمّ إنّ الحديث عن كلّ أنواع الظّلّ، مظهرٌ من مظاهر الشّمول، الّذي هو بدوره مظهرٌ من مظاهر إعجاز القرآن الكريم.

١٤- بشأن الآية الكريمة الخمسين الّتي تسبقها آيتان كريمتان تتحدّثان عن إنزال الله تعالى من السّماء ماءً طهوراً اختلف العلماء بشأنها. فمن العلماء من ذهب إلى أنّها امتدادٌ للحديث عن الماء، فالله تعالى صرّف الماء بين النّاس ليذّكّروا فأصرّوا على الكفر، ومن العلماء من ذهب إلى أنّها تتحدّث عن القرآن الكريم بسب وضوح المعنى ولكثرة حديث السّورة الكريمة عن القرآن الكريم، وبذلك تكون الآية الكريمة أولى آياتٍ كريماتٍ ثلاث تتحدّث عن القرآن الكريم، الجيش الأكبر للمصطفى ﷺ والسّلاح الأمضى. وهذه هي الآيات الكريمات الخمس. قال عزّ من قائل[٢]:﴿وهو الّذي أرسل الرّياح بُشراً بين يدي رحمته. وأنزلنا من السّماء ماءً طهورا. لنحيي به بلدةً مَيْتاً ونسقيه ممّا خلقنا أنعاماً وأناسيّ كثيرا. ولقد صرّفناه بينهم ليذّكّروا فأبى أكثر النّاس إلّا كفورا. ولو شئنا لبعثنا في كلّ قريةٍ نذيرا. فلاتطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً﴾.

ومعنى الآيات الكريمات بإيجاز: إنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذي أرسل الرّياح مبشّراتٍ بين يدي رحمته بنزول المطر من السحاب، وهو الّذي أنزل من السّماء ماءً طاهراً في نفسه مطهّراً لغيره، ليحيي بذلك الماء مكاناً ميتاً ويمكّن من شاء ممّا خلق من البهائم ومن النّاس أن ينتفعوا وبذلك الماء وقت الحاجة إليه. ولقد صرّف عزّ وجلّ ذلك الماء(وفق رأي فريقٍ من العلماء) بينهم ليذّكر النّاس فأبى أكثرهم إلّا كفورا. ووفق رأي الفريق الآخر من العلماء) ولقد صرّفنا

---

[٢] سورة الفرقان ٤٨-٥٢.

القرآن الكريم بين النّاس ونوّعنا التّعبير فيه من وعدٍ ووعيدٍ وقَصصٍ وحِكم وأمثالٍ وأحكامٍ وما إلى ذلك ليتّعظ النّاس ويعتبروا فأبى أكثرهم إلّا كفورا.

ولو شئنا يا محمّد لبعثنا في كلّ قريةٍ نذيرا، ولكنّا لم نشأ فلم نفعل،فأنت يامحمّد خاتم النّبيّين، وأشرف المرسلين، ورحمة الله تعالى للعالمين، فلاتطع يامحمّد الكافرين، وجاهدهم بهذا القرآن الكريم جهاداً كبيراً، فإنّه جيشك الأكبر، وسلاحك الأعظم.

ونحن مع الفريق من العلماء الّذي ذهب إلى أنّ الآية الكريمة تتحدّث عن القرآن الكريم وليس عن الماء. وثمّة أسبابٌ وراء الأخذ بهذا الرّأي، والله تعالى أعلم، وهذه هي الآية الكريمة. قال تعالى:﴿ ولقد صرّفناه بينهم ليذّكّروا فأبى أكثر النّاس إلّا كفورا﴾ وهذه هي الأسباب[1]بإيجاز:

أ– حينما نقارن بين القرآن الكريم من ناحية، وبين المطر من ناحيةٍ أخرى، من حيث القدرة الأكبر والأسهل على التّذكير، فإنّ المقارنة تنتهي إلى أنّ تلك القدرة من نصيب القرآن الكريم.

ب– حينما نقارن بين القرآن الكريم من ناحية، وبين المطر من ناحيةٍ أخرى، من حيث القابليّة الأكثر للتّصريف وبالتّالي التّذكير، فإنّ المقارنة تنتهي إلى أنّ تلك القابليّة من نصيب القرآن الكريم. وبهذه المناسبة نقرّر أنّه ليس ثمّة إشارةٌ واحدةٌ في القرآن الكريم إلى تصريف المطر، بينما الإشارات كثيرةٌ إلى تصريف الله تعالى الآيات، ومنها ماجاء فيه النّصّ الصّريح على القرآن الكريم، كما أنّ التّذييل الّذي جاء في آية سورة الفرقان جاء في إحدى تلك الآيات الكريمات، وهي

---

[1] ذكرنا هذه الأسباب بإسهاب في كتابنا: تأمّلات في سورة الفرقان ١٦٥-١٧٠ من الطّبعة الثّانية، مكة المكرّمة ١٤١٤هـ ١٩٩٣م.

الآية الكريمة التّاسعة والثّمانون من سورة الإسراء المكّيّة. قال عزّ من قائل[٢]:﴿ ولقد صرّفنا للنّاس في هذا القرآن من كلّ مثلٍ فأبى أكثر النّاس إلا كفورا﴾ وقال تعالى[٣]:﴿ ولقد صرّفنا في هذا القرآن ليّذكّروا ومايزيدهم إلّا نفورا﴾ وقال تعالى[٤]:﴿ ولقد صرّفناه بينهم ليّذكّروا﴾ بينما جاء في الآية الكريمة السّابقة اسم الموصول لغير العقلاء في القول:﴿ممّا خلقنا﴾ تمشّيا مع تقديم الآية الكريمة في الذّكر غير العقلاء:﴿ أنعاماً﴾ قال تعالى:﴿ لنحيي به بلدةً ميتاً ونُسْقِيه ممّا خلقنا أنعاماً وأناسيّ كثيرا﴾

د- التّحوّل من المحسوس إلى المعنويّ، لوجود قرينةٍ تهيّ لذلك، مظهرٌ من مظاهر إعجاز القرآن الكريم. ففي سورة النّحل الكريمة مَثَلاً، يتمّ التحوّل من لفظة سبيل المحسوسة المتعدّدة حقيقةً، والّتي تسير فيها الأنعام، والمفهومة ضمناً من السّياق، إلى سبيل الهدى الواحدة الّتي يهدي الله تعالى إليها من يشاء من عباده. ومن هذه السّبل المعنويّة ما هو حائدٌ عن الاستقامة. قال تعالى[١]:﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفءٌ ومنافع ومنها تأكلون. ولكم فيها جمالٌ حين تريحون وحين تسرحون. وتحمل أثقالكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه إلّا بشقّ الأنفس. إنّ ربّكم لرءوفٌ رحيم. والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة. ويخلق مالا تعلمون. وعلى الله قصد السّبيل ومنها جائر. ولو شاء لهداكم أجمعين﴾ وفي سورة الأعراف الكريمة يتمّ التّحوّل من اللّباسين الحسّيّين، اللّباس الّذي يواري السّوءات، ولباس الزّينة، إلى لباس التّقوى المعنويّ الّذي هو خيرٌ من اللّباسين

---

[٢] سورة الإسراء ٨٩.

[٣] سورة الإسراء ٤١.

[٤] سورة طه ١١٣.

[١] سورة النّحل ٥-٩.

السّابقين. قال تعالى[٢]:﴿ يابني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم وريشاً. ولباس التّقوى ذلك خير. ذلك من آيات الله لعلّهم يذّكّرون﴾ وفي سورة البقرة الكريمة يتمّ التّحوّل من الأمر بالتّزوّد بالزّاد في أثناء السّفر لأداء فريضة الحجّ، إلى الأمر بالتّزوّد بالتّقوى في أثناء السّفر إلى الله تعالى. قال عزّ من قائل[٣]:﴿ الحجّ أشهرٌ معلومات. فمن فرض فيهنّ الحجّ فلا رفث ولا فسوق ولاجدال في الحجّ. وماتفعلوا من خيرٍ يعلمه الله. وتزوّدوا فإنّ خير الزّاد التّقوى. واتّقون ياأولي الألباب﴾.

هـ- القرآن الكريم الّذي أنزله الله تعالى على المصطفى ﷺ أحد موضوعات السّورة الكريمة الّتي أشارت إليها أولى آيات السّورة الكريمة. والآية الكريمة الّتي نحن بصددها إحدى آياتٍ كريماتٍ ثلاث تتحدّث عن القرآن الكريم والرّسول العظيم، صلوات الله وسلامه عليه. وإنّ ضمير المفرد الغائب من القول:﴿به﴾ في الآية الكريمة الثّالثة، يعود بإجماع العلماء على القرآن الكريم، وهو ذات الضمير في القول:﴿ ولقد صرّفناه﴾ وإنّ في عودة الضّمير في الآية الكريمة الثّالثة على القرآن الكريم الّذي لم يجر له ذكرٌ صريح، قوّةً للرّأي بعودة الضّمير ذاته في الآية الكريمة الأولى على القرآن الكريم. وهذه هي الآيات الكريمات الثّلاث. قال تعالى:﴿ ولقد صرّفناه بينهم ليذّكّروا فأبى أكثر النّاس إلّا كفورا. ولو شئنا لبعثنا في كلّ قريةٍ نذيرا. فلاتطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيرا﴾.

وإنّ رجوع الضّمير في قول الحقّ جلّ وعلا:﴿ ولقد صرّفناه بينهم﴾ إلى القرآن الكريم، يشدّ الآية الكريمة الّتي فيها هذا القول إلى الآيتين الكريمتين التّاليتين شدّاً وثيقاً. ويتأكّد هذا المعنى حينما نفسّر الآيات الكريمات الثّلاث

---

[٢] سورة الأعراف ٢٦.

[٣] سورة البقرة ١٩٧.

وفق هذا الرّأي. إنّ المعنى–والله تعالى أعلم–ولقد صرّفنا القرآن الكريم بين النّاس، من وعدٍ، ووعيد، وقصص، وحِكَمٍ، وأحكامٍ، وأمثال، وما إلى ذلك، ليتّعظوا ويعتبروا، فأبى أكثر النّاس إلّا نفوراً بقلوبهم، وفراراً بأجسادهم. ولو شئنا يامحمّد لبعثنا في كلّ قرية نذيراً، ولكنّا لم نشأ، وأرسلناك يامحمّد للنّاس كافّةً بشيراً ونذيرا، فلاتطع يامحمّد الكافرين عموماً، وجاهدهم بهذا القرآن الكريم جهاداً كبيراً، فإنّه جيشك الأعظم، وسلاحك الأمضى.

١٥– إذا كان الإنذار يغلب على السّورة الكريمة حتّى الآية الكريمة الخامسة والخمسين في قول الحقّ جلّ وعلا:﴿ ويعبدون من دون الله مالاينفعهم ولايضرّهم. وكان الكافر على ربّه ظهيرا﴾ تمشّياً مع الإنذار الّذي اكتفت بذكره أولى آيات السّورة الكريمة، فإنّ الآية الكريمة السّادسة والخمسين تجمع بين التّبشير والإنذار في قول الحقّ جلّ وعلا خطاباً للمصطفى ﷺ:﴿ وما أرسلناك إلّا مبّشراً ونذيرا﴾وتأخذ الآيات الكريمات بعد ذلك في الجمع بين التّبشير والإنذار، ويخلص الحديث في نهاية السّورة الكريمة عن عباد الرّحمن. وإنّ الحديث عن عباد الرّحمن الّذي يغلب عليه التّبشير يجيء فيه شيءٌ من الإنذار، وبخاصةٍ آخرُ آيات السّورة الكريمة.

١٦– آخر أقسام السّورة الكريمة يتعلّق بعباد الرّحمن ويذكر النّعوت الّتي يتحلّون بها في مجال الأخلاق والسّلوك والمعاملة، ويذكر الصّفات السّيئة الّتي يتخلّون عنها ويتحلّون بأضدادها. وعباد الرّحمن هم بمثابة الثّمرة النّاضجة اليانعة الّتي طرحها منهج التّربية لسورة الفرقان المكّيّة الكريمة. إنّ عباد الرّحمن يمشون على الأرض هوناً، وهذا سلوكٌ عظيم، وإذا خاطبهم الجاهلون السّفهاء قالوا قولاً يسلم به دينهم وعرضهم، وهذه معاملةٌ عظيمة. والسّلوك والمعاملة ثمرة لخلق عباد الرّحمن العظيم. إنّهم يقضون اللّيل يصلّون، ويسألون الله تعالى

من أعماقهم أن يصرف عنهم عذاب جهنّم الّتي ساءت مكان استقرارٍ وإقامة. فعباد الرّحمن حذرون، ويعلمون أين تقف أقدارهم، ولايجهلون أنّ دخولهم الجنّة بفضل الله تعالى وليس بأعمالهم الصّالحة، إلّا إذا تغمّدهم عزّ وجلّ برحمته، وتفضّل بقبول أعمالهم الصّالحة. وحينما يحافظ عباد الرّحمن على الصّلاة فذلك معناه أنّها بفضل الله تعالى تنهاهم عن الفحشاء والمنكر. وعباد الرّحمن ينفقون ممّا رزقهم الله تعالى. وهم إذا أنفقوا لم يُسْرفوا ويبذّروا، ولم يَقْتُرُوا ويبخلوا، ولكنّهم يختارون الطّريق المعتدل الوسط. ويدخل في النّفقة الزّكاة بطبيعة الحال وكذلك الصّدقة. وكأنّ السّياق يجمع على نحوٍ من الأنحاء بين الصّلاة والزّكاة، جرياً على عادة القرآن الكريم في الجمع بينهما. وعباد الرّحمن يوحّدون الله تعالى، ولايقتلون النّفس الّتي حرّم الله تعالى قتلها إلّا بالحقّ، ولايرتكبون جريمة الزّنا، ولايدلون بشهادة الزّور، ولايشهدون مجالس الزّور والباطل واللّهو، وإذا مرّوا باللّغو والباطل مرّوا عليه مرور الكرام. وهم يخرّون ساجدين لآيات الله تعالى سامعين مطيعين مبصرين. وهم يسألون الله تعالى أن يهب لهم من أزواجهم وذريّاتهم قرّة أعين، وبهجة أنفس، وسرور قلوب، وأن يجعلهم أئمّة هدى، ومصابيح دُجَى.

إنّ عباد الرّحمن هؤلاء يجزيهم الله تعالى يوم القيامة أرفع مكانٍ في الجنّة بسبب صبرهم على البلاء والطّاعات وعن المعاصي، ويتلقّون من الملائكة التّحيّة، بمعنى الدّعاء بالخلود في جنّات النّعيم، والسّلام، بمعنى الدّعاء بالطّمأنينة والأمان. إنّهم خالدون بفضل الله تعالى في الجنّة الّتي حسنت مكان استقرارٍ وإقامة.

وفي أثناء الحديث عن نعوت عباد الرّحمن يُفْتَح بابُ التّوبة على مصراعيه لمن تاب توبةً نصوحاً من ارتكابه أيَّ ذنبٍ كَبُرَ أو صغر. بل إنّ ربّ العزّة

والجلال الّذي لا رادّ لفضله ولامعقّب لحكمة يبدّل سيّئات الدّنيا، لمن تاب وآمن وعمل صالحاً، حسناتٍ في الآخرة.

أمّا المصرّون على الكفر حتّى الوفاة فإنّ العذاب ملازمٌ لهم في نار الجحيم، والعياذ بالله.

مظاهر من إعجاز سورة الفرقان

أ– تطوّر الدّلالة

من مظاهر إعجاز سورة الفرقان المكّيّة الكريمة استعمالها بعض الألفاظ لأداء معانٍ معيّنةٍ أراد العرب الّذين نزل القرآن الكريم بلسانهم أداءها أساساً في مناسباتٍ خاصّة، وذلك حينما استعملوا تلك الألفاظ لأداء مستوىً رفيعٍ وأخيرٍ من الدّلالة. وكأنّ هذه اللّفظة أو تلك، قد تطوّرت دلالتها خلال العصور، حتّى آتت أكلها أخيراً في إفادتها ذلك المعنى البعيد. وسبق أن وقفنا عند بعض تلك الاستعمالات في الشّقّ الأوّل من الدّراسة عند واحدٍ من تلك الاستعمالات، لأنّه يحتاج إلى وقفةٍ أطول. وهذا القول المستعار يجيء في آيتين كريمتين، أمّا هذا القول فإنّه:﴿حِجْراً محجورا﴾ وأمّا الآيتان الكريمتان فإنّهما الآية الكريمة الثّانية والعشرون، والآية الكريمة الثّالثة والخمسون. وفي الآية الكريمة الأولى يجيء ذلك القول على لسان الكافرين حين يرون ملائكة العذاب يوم القيامة. قال تعالى:﴿ يوم يرون الملائكة لابشرى يومئذٍ للمجرمين ويقولون حجراً محجورا﴾ وفي الآية الكريمة الأخرى يجيء ذلك القول على لسان البحرين، العذب الفرات والمِلْح الأجاج. قال تعالى:﴿ وهو الّذي مرج البحرين هذا عذبٌ فراتٌ وهذا مِلْحٌ أُجاجٌ وجعل بينهما برزخاً وحِجْراً محجورا﴾

وإنّه بالنّظر إلى الأصل اللّغويّ:"حجر" الّذي يعود إليه القول: ﴿ حِجْراً محجورا﴾ يتبيّن أنّه المنع والإحاطة على الشّيء. يقول ابن فارس[1]:" الحاء والجيم والرّاء أصلٌ واحدٌ مطّرد، وهو المنع والإحاطة على الشّيء" وإنّه بالنّظر إلى الألفاظ المشتقّة من هذا الأصل اللّغويّ من زاوية إفادة المنع والإحاطة يتبيّن ثاقب نظر ابن فارس الّذي أعاد تلك الإفادة إلى الحَجَر، وهو الجوهر الصُّلب المعروف، وجمعه أحجار وحجارة[1] يقول رحمه الله تعالى رحمةً واسعة[2]:" وأحسَبَ أنّ الباب كلّه محمولٌ عليه ومأخوذ منه، لشدّته وصلابته".

ونستطيع أن نتبيّن من التّجربة ما أشار إليه ابن فارس، من إفادة الأصل اللّغويّ المنع والإحاطة المستفادين من الحَجَر أساساً. إنّ الحجر غايةٌ في الصّلابة من ناحية، ومن هنا كان الحجر المادّة المفضّلة في عمليّة البناء قديماً، وإنّ الحجر رغم صلابته قابلٌ لأن يشكّله الإنسان كما يريد، وبخاصّةٍ في عمليّة البناء، من ناحيةٍ أخرى. ولمّا كان الحجر قويّاً وقابلاً للتّشكيل في الهيئة الّتي يريدها الحجّار والبنّاء أفادت الألفاظ المشتقّة من الأصل اللّغويّ هذين المعنيين أنّ كلّ مكانٍ يراد البناء حوله يشتمل على بعض الجوانب المنحنية فينحني البناء، ثمّ إنّ الانحناء في البناء مطلبٌ أساسيّ بشأن بعض العمليّات، كبناء السّدود والعقود.

وإنّه بالنّظر إلى الألفاظ المشتقّة من الأصل اللّغويّ :"حجر" يتبيّن أنّ ثمّة تحوّلاً من المرحلة الحسّيّة إلى المرحلة المعنويّة، حتّى توّج الاستعمال بالقول الّذي جاء في القرآن الكريم في سورة الفرقان الكريمة:﴿ حِجْراً محجورا﴾.

---

[1] معجم مقاييس اللّغة:"حجر" ١٣٨/٢.

[1] مفردات الرّاغب الأصفهاني:"حجر" ١٤٢/١.

[2] معجم مقايس اللّغة:"حجر" ١٣٨/١.

ومن الألفاظ الّتي أفادت المنع والإحاطة على الشّيء في المرحلة الحسّيّة الحِجْر والمَحْجِر والحُجرة. إنّ كلّ ماحَجَرْته من حائطٍ فهو حِجْر[٣] والحِجْر: حِجْر الكعبة[٤] والحِجْر: ديار ثمود ناحية الشّام عند وادي القُرى، وهم قوم صالحٍ النّبيّ ﷺ[٥] وفي التّنزيل[٦]:﴿ ولقد كذّب أصحاب الحِجْر المرسلين﴾ والحَجْر والحِجْر والحُجْر والمَحْجِر، كلّ ذلك: الحرام. والكسر أفصح، وقرىء بهنّ[١]:﴿ وقالوا هذه أنعامٌ وحرثٌ حِجْر﴾[٢] والحِجْر في الآية الكريمة الممنوع منه بتحريمه[٣] وحَجْر الإنسان وحِجْره، بالفتح والكسر: حِضْنُه وثوبه[٤] ومابين يدي الإنسان من ثوبه[٥] قال الأزهريّ: يقال هم في حِجْر فلانٍ أي في كنفه ومَنَته ومَنْعه، كلّه واحد[٦] والحَجْر والتّحجير أن يُجْعَلَ حول المكان حجارة. يقال: حَجَرْته حَجْراً فهو محجور، وحجّرته تحجيراً فهو محجَّر. وسمّي ما أحيط به الحجارة حِجْراً، وبه سمّي حِجر الكعبة وديار ثمود[٧] والحَجْر:المنع[٨].

---

[٣] لسان العرب:"حجر".

[٤] لسان العرب:" حجر".

[٥] لسان العرب" حجر".

[٦] سورة الحِجْر ٨٠.

[١] سورة الانعام١٣٨.

[٢] لسان العرب:"حجر".

[٣] مفردات الرّاغب الأصفهاني :"حجر" ١٤٢/١.

[٤] انظر لسان العرب :"حجر".

[٥] المعجم الوسيط:"حجر".

[٦] لسان العرب:"حجر".

[٧] انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني حجر١٤٢/١.

[٨] لسان العرب:"حجر".

والحُجْرة من البيوت هي الّتي ينزلها النّاس، وهو المكان الّذي حَوَّطوا عليه، وهي كذلك لمنع المال وحفظه[٩] وكأنّ الحجرة تُبْنى أساساً من الحجارة، وهي تحيط بالمكان، وتحفظ من بداخلها من ناس، وما بداخلها من مالٍ أيضا.

والمَحْجِر في العين ما أحاط بها[١] ودار، وهو الّذي يظهر من النّقاب[٢] ويقال كذلك المِحْجر[٣] والمِحْجر والمَحْجِر: موضع الحَجْر، ومنه المَحجر الصّحّي[٤].

وتَصُوّر من الحَجَر دورانه فقيل: حجَّر القمر: إذا صار حوله دائرة[٥] وإذا استدار بخطّ دقيق من غير أن يغلظ، وكذلك إذا صارت حوله دارةٌ في الغميم[٦].

ويقال: حجر الحاكم على السّفيه حَجْراً، وذلك منعه إيّاه من التّصرّف في ماله[٧] وكلّ مامَنَعْتَ منه فقد حَجَرْت عليه[٨] والعقل يُسَمَّى حِجْراً لأنّه يمنع من

---

[٩] انظر لسان العرب:"حجر".

[١] المعجم الوسيط:"حجر".

[٢] معجم مقاييس اللّغة:"حجر" ١٣٨/٢ ولسان العرب:"حجر".

[٣] انظر لسان العرب:"حجر".

[٤] المعجم الوسيط:"حجر".

[٥] مفردات الرّاغب الأصفهاني:"حجر" ١٤٣/١.

[٦] لسان العرب:"حجر" ومعجم مقاييس اللّغة:"حجر" ١٣٨/٢ والمعجم الوسيط:"حجر".

[٧] معجم مقاييس اللّغة:"حجر" ١٣٨/٢.

[٨] لسان العرب:" حجر".

إتيان مالاينبغي، كما سمّي عَقْلاً تشبيهاً بالعِقال. والحِجْر: الفرس الأنثى وهي تصان ويضنّ بها[٩].

والحِجر: الحرام. وكان الرّجل يلقى الرّجل يخافه في الأشهر الحرم فيقولك حِجْراً، أي حراماً [١٠]اللّيث: كان الرّجل في الجاهليّة يلقى الرّجل يخافه في الشّهر الحرام فيقول: حجراً محجورا، أي حرامٌ محرّمٌ عليك في هذا الشّهر فلايبدؤه منه شرّ[١] قال سيبويه: ويقول الرّجل للرّجل أتفعل كذا وكذا يافلان؟ فيقول:حجراً، أي ستراً وبراءةً من هذا الأمر، وهو راجعٌ إلى معنى التّحريم والحرمة[٢].

وبشأن القول في الآية الكريمة الثّانية والعشرين:﴿ ويقولون حجراً محجورا﴾ يقول الزّمخشري[٣]:" ذكره سيبويه في باب المصادر غير المتصرّفة المنصوبة بأفعالٍ متروك إظهارها نحو معاذَ الله[٤] وقِعْدَك الله[٥] وعَمْرَك الله. وهذه كلمةٌ كانوا يتكلّمون بها عند لقاء عدوٍّ موتور أو هجوم نازلةٍ أو نحو ذلك، يضعونها موضع الاستعاذة. قال سيبويه: ويقول الرّجل للرّجل: أتفعل كذا وكذا فيقول:حِجْراً. وهي مِنْ حَجَره إذا منعه، لأنّ المستعيذ طالبٌ من الله أن يمنع المكروه فلايلحقه، فكان المعنى: اسأل الله أن يمنع ذلك منعاً ويحجره حجرا...فإن قلت: فإذ قد ثبت انّه من

---

[٩] انظر معجم مقاييس اللّغة: "حجر" ١٣٨/٢.

[١٠] معجم مقاييس اللّغة ١٣٩/٢.

[١] لسان العرب:"حجر".

[٢] لسان العرب:"حجر".

[٣] الكشّاف ٤٠٥/٢ وانظر البحر المحيط ٤٩٢/٦ و٤٩٣.

[٤] معاذ الله أي نعوذ بالله معاذا، منصوب على المصدر الّذي أريد به الفعل. انظر اللّسان:"عوذ".

[٥] قِعْدك الله بالكسر استعطافٌ لاقَسَم...وهو مصدرٌ واقعٌ موقع الفعل بمنزلة عَمْرَك الله، ومعناه: سألت الله تعميرك. وكذلك قِعْدَك الله، تقديره:قَعَدْتك الله، أي سالت الله حفظك، من قوله تعالى في سورة ق ١٧:﴿ عن اليمين وعن الشّمال قعيد﴾ انظر القاموس:"قعد".

باب المصادر فما معنى وصفه بمحجورا؟ قلت: جاءت هذه الصّفة لتأكيد معنى الحجر كما قالوا: ذيلٌ ذائل، والذّيل الهوان، وموتٌ مائت" قال عزّ من قائل: ﴿ يوم يرون الملائكة لابُشْرَى يومئذٍ للمجرمين ويقولون حجراً محجورا﴾.

وبشأن القول نفسه في الآية الكريمة الثّالثة والخمسين، قال تعالى:﴿ وهو الّذي مرج البحرين هذا عذبٌ فراتٌ وهذا ملحٌ أجاجٌ وجعل بينهما برزخاً وحِجْراً محجورا﴾ يقول الزّمخشريّ أيضاً[1] :" فإن قلت:﴿ وحجراً محجورا﴾ مامعناه؟ قلت: هي الكلمة الّتي يقولها المتعوّذ وقد فسّرناها. وهي ههنا واقعةٌ على سبيل المجاز، كأنّ كلّ واحدٍ من البحرين يتعوّذ من صاحبه ويقول له: حجراً محجورا، كما قال[2]:﴿ بينهما برزخٌ لايبغيان﴾ أي لايبغى أحدهما على صاحبه بالممازجة. فانتفاء البغي ثمّة كالتّعوذ ههنا. جعل كلّ واحدٍ منهما في صورة الباغي على صاحبه فهو يتعوّذ منه. وهي من أحسن الاستعارات وأشهدها على البلاغة".

وبعد هذه الجولة الواسعة مع الأصل اللّغويّ:"حجر" ومع مجموعةٍ من الألفاظ ذوات العَلاقة على نحوٍ من الأنحاء بالقول:﴿ حجراً محجورا﴾ تبيّن تطوّر دلالةٍ عددٍ من تلك الألفاظ والتّحوّل الدّلالّي دائماً من المرحلة الحسّيّة إلى المرحلة المعنويّة، كما تبيّن استعارة القرآن الكريم عدداً من الألفاظ الّتي استعملها العرب الّذين نزل القرآن الكريم بلسانهم استعمالاً خاصّاً، واستعمال القرآن الكريم لها وفق طرائق العرب في التّعبير، مع ملاحظة أنّ القرآن الكريم يمضي بذلك الاستعمال إلى مدىً أوسع وأفقٍ أرحب، وبذلك ينهض القرآن الكريم نهوضاً واسعاً بهذه الخاصّة التّعبيريّة للّغة العربيّة.

---

[1] الكشّاف ٢/٤١٢.

[2] سورة الرّحمن ٢٠ وقد أكملنا الآية الكريمة.

إنّ منتهى ماجرى على ألسنة العرب القول:"حِجْرا" في معنى الاستعاذة، والرّغبة في طرد الأذى ودفع البلاء. أمّا في الآيتين الكريمتين من سورة الفرقان فإنّ التّعبير يجيء في أبعد الخطوات:﴿ حجراً محجورا﴾ وهو إذا كان في الآية الكريمة الثّانية والعشرين يجيء على ألسنة الكافرين يوم القيامة جرياً على عادتهم في الحياة الدّنيا حينما يريدون دفع الأذى وصرف الشّرّ، ظنّاً منهم أنّ ذلك ينفعهم في الحياة الآخرة كما نفعهم في الحياة الدّنيا وهيهات، فإنّ هذا القول في الآية الكريمة الثّالثة والخمسين يجيء على لسان البحرين العذب الفرات والملح الأجاج.

ونودّ أن نختم حديثنا بشأن ظاهرة تطوّر الدّلالة هذه بتفسير الآيتين الكريمتين اللّتين تمّ فيهما استعارة القول:﴿ حجراً محجورا﴾ هذه هي الآية الكريمة الثّانية والعشرون، قال تعالى:﴿يوم يرون الملائكة لابشرى يومئذٍ للمجرمين ويقولون حجراً محجورا﴾ ومعنى الآية الكريمة، والله تعالى أعلم. يوم يرى المشركون ملائكة العذاب يقول الملائكة لهم في يوم القيامة المجموع له النّاس المشهود لابشارة بخير في هذا اليوم ولاخبر سارّاً للمجرمين. وفي المقابل يجري على لسان المشركين القول الّذي كان يجري على لسانهم في الحياة الدّنيا بقصد منع الأذى ودفع السّوء عنهم:﴿ حجراً محجورا﴾ وكأنّهم يريدون للسّوء أن يكون محبوساً عنهم محجوراً عليه، وأنّى لهم ذلك يوم القيامة.

وهذه هي الآية الكريمة الثّالثة والخمسون. قال تعالى:﴿وهو الّذي مرج البحرين هذا عذبٌ فراتٌ وهذا ملحٌ أجاجٌ وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجورا﴾ ومعنى الآية الكريمة، والله تعالى أعلم، والله تعالى هو الّذي أرسل البحرين متجاورين[1] هذا عذبٌ فراتٌ شديد العذوبة[2] وهذا مِلحٌ أجاجٌ شديد الملوحة[3]

---

[1] الجلالين وتفسير الطّبري ٢٧/٧٥.

[2] تفسير الطّبري١٩/١٦.

وجعل عزّ وجلّ بينهما برزخاً وحاجزاً يمنع كلّ واحدٍ منهما من إفساد الآخر[1] وجعل كلّ واحدٍ منهما حراماً محرَّماً على صاحبه أن يغيّره ويفسده[2] وكأنّ كلّ واحدٍ من البحرين يتعوّذ من صاحبه ويقول له:" حجراً محجورا" وقد جاء في سورة الرّحمن[3] قول الحقّ جلّ وعلا:﴿ أمّ جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً. أإلهٌ مع الله. بل أكثرهم لايعلمون﴾.

ونستطيع أن نفهم أنّ المراد بالبرزخ وبالحاجز الحدار الأرض المقدّر المضبوط بيد القدرة الإلهيّة بحيث إنّ الأنهار تجري دائماً باتّجاه الماء المِلْح في البحار والمحيطات. وفي جريان الماء العذب خير العباد والبلاد. وفي سكون الماء الملح وتقديمه رجلاً وتأخيره أخرى في هيئة المدّ والجزر خير العباد والبلاد كذلك. إنّ الماء العذب الفرات إذا التقى بالماء الملح الأجاج لايفسده بل يصلحه لقدرة الماء العذب على جعل نسبة الملوحة في البحار والمحيطات معتدلة. ولو حدث العكس، لاسمح الله، فزحف الماء الملح على الماء العذب والأراضي الخصبة على غرار مايجري اليوم بإرادة الله تعالى في بعض الأصقاع من تقلّبات مناخيّةٍ وبيئيّة لكان في ذلك فساد البلاد وهلاك الحرث والنّسل.

إنّ البرزخ والحاجز بين البحرين العذب الفرات والملح الأجاج يمنع كلّاً من البحرين أن يفرط على الآخر أو أن يطغى، وكأنّ كلًّا من البحرين يتعوّذ من صاحبه ويقول له: ﴿حجراً محجورا﴾.

---

[3] تفسير الطّبري١٩/١٦.

[1] الجلالين.

[2] تفسير الطّبري ١٩/١٦.

[3] الآية ١٩و٢٠.

وهكذا يتجلّى تطوّر الدّلالة في الآيتين الكريمتين في أرفع الصّور الّتي يمكن أن يتجلّى فيها.

الإعجاز في سرد اعتراضات الكافرين ودحضها:

ألمحنا في القسم الأوّل من الدّراسة إلى أنّ عرض القرآن الكريم في أسلوبه المعجز اتّهامات الكافرين واقتراحاتهم، والرّدّ على تلك الاتّهامات والاقتراحات في أسلوب القرآن الكريم المعجز كذلك، سيكون بإذن الله تعالى ميدان الدّراسة، في هذا الشّقّ الآخر منها. وسبق أن بيّنّا أنّ الرّدّ على تلك الاتّهامات والاقتراحات في سورة الفرقان الكريمة يكون على الفور أحياناً، وعلى التّراخي أحياناً أخرى. وبشأن الاتّهامات والاقتراحات في سورة الفرقان الكريمة يكون على الفور أحياناً، وعلى التّراخي أحياناً أخرى. وبشأن الاتّهامات والاقتراحات المفردة جاء الرّدّ عليها كلِّها على الفور. لقد جاء في الآية الكريمة الرّابعة اتّهام الكافرين القرآن الكريم بأنّه كذبٌ افتراه النّبيّ ﷺ وأعانه عليه قومٌ آخرون، كما جاء الرّدّ عليهم فوراً، فهم ظالمون ويدلون بشهادة الزّور. قال تعالى:﴿ وقال الّذين كفروا إن هذا إلّا إفكٌ افتراه وأعانه عليه قومٌ آخرون فقد جاءوا ظلماً وزورا﴾ وجاء في الآية الكريمة الخامسة اتّهام الكافرين القرآن الكريم بأنّه أحاديث الأوّلين وأكاذيبهم طلب محمّدٌ أن تكتب له فهي تقرأ عليه صباحاً ومساءً. قال تعالى:﴿ وقالوا أساطير الأوّلين اكتتبها فهي تُمْلَى عليه بكرةً وأصيلا﴾ وقد جاء الرّدّ فوراً في الآية الكريمة السّادسة. قال تعالى:﴿ قل أنزله الّذي يعلم السّرّ في السّماوات والأرض. إنّه كان غفوراً رحيما﴾ والمعنى قل يامحمّد لأولئك المشركين الكاذبين: قد انزل هذا القرآنَ الكريمَ اللهُ تعالى الّذي يعلم السّرّ والغيب في السّماوات والأرض. إنّه عزّ وجلّ كان دائماً وأبداً غفوراً رحيماً لمن تاب وأنب. وكما لايعرف النّاس من أسرار السّماوات والأرض إلّا القليل، كذلك لايعرفون من أسرار الكتاب العزيز إلّا القليل. وجاء في الآية الكريمة

الثّانية والثّلاثين اقتراح الكافرين نزول القرآن الكريم جملةً واحدةً كالتّوراة والإنجيل والزّبور بدلاً من نزوله مفرّقاً، كما جاء ردّ ذلك الاقتراح على الفور. قال تعالى:﴿ وقال الّذين كفروا لولا نُزّل عليه القرآن جملةً واحدة. كذلك لنثبّت به فؤادك ورتّلناه ترتيلا﴾ والمعنى: وقال كفّار مكّة في المقام الأوّل: هلّا نُزِّل على محمّد القرآن جملةً واحدةً كالتّوراة والإنجيل والزّبور بدلاً من نزوله مفرّقاً. وردّ الله تعالى على القوم الكافرين بالقول: كذلك نزّلنا القرآن الكريم مفرّقاً لنثبّت به فؤادك يامحمّد ونقوّي به قلبك، فكأن في نزول أيّ جزءٍ من القرآن الكريم نزول كتابٍ سماويّ إليك، وكأنّ نزول الكتب السّماويّة إليك، بعدد مرّات نزول الوحي عليك. وقد رتلنا القرآن الكريم ترتيلاً، ونزّلناه في هذه الصّورة المفرّقة تنزيلاً يليق بجلاله وعظمته، ويتدبّروه، ويتمشَّوْا بهديه.

وبشأن الاتّهامات والاقتراحات المجموعة جاء الرّدّ عليها على الفور وعلى التّراخي. كلّ ذلك في أسلوب القرآن الكريم المعجز، الّذي يرضى كلّ عقل بفصوص حكمه، ويشبع كلّ نفس بتدفّق معانيه، ويطرب كلّ أذنٍ بتلاؤم أصواته.

وإنّ الإعجاز في سرد الاعتراضات والاقتراحات ودحضها ميدان هذه الجزئيّة من الدّراسة. والله تعالى المستعان.

لقد جاءت اعتراضات الكافرين واقتراحاتهم المجتمعة، والرّدود والتّعقيبات في سورة الفرقان الكريمة ابتداءً من الآية الكريمة السابعة، وانتهاءً بالآية الكريمة الثّانية والثّلاثين. ونعتقد، والله تعالى أعلم، أنّ الطّريقة المثلى لتبيين مظاهر إعجاز السّورة الكريمة في سرد الاعتراضات والاقتراحات وفي دحض كلّ ذلك أن نسير بحسب ترتيب الآيات الكريمات مع معانيها، وان نربط بين المعنى الّذي يصادفنا أوّلاً وبين أشباه ذلك المعنى ونظائره في الآيات الكريمات التّاليات.

لقد جاء في الآيتين الكريمتين السّابعة والثّامنة ذكر مجموعةٍ من الاعتراضات والاقتراحات. قال عزّ من قائل:﴿ وقالوا مالِ هذا الرّسول يأكل الطّعام ويمشي في الأسواق لولا أُنْزِل إليه مَلَكٌ فيكونَ معه نذيرا. أو يُلْقَى إليه كنزٌ أو تكونُ له جنّةٌ يأكل منها. وقال الظّالمون إن تتّبعون إلاّ رجلاً مسحورا﴾ إنّ اعتراضات الكافرين واقتراحاتهم في الآيتين الكريمتين على النّحو التّالي.

أ- الإنكار على الرّسول الكريم أن يأكل الطّعام وبالتّالي هو يضطرّ لأن يتخلّص كسائر البشر من الفضلات، وكأنّ الكافرين ينكرون على الرّسول الكريم أن يكون واحداً من البشر، وكأنّهم يريدون أن يكون الرّسول واحداً من الملائكة، لا واحداً من البشر.

ب- الإنكار على الرّسول الكريم أن يضطرّ للمشي في الأسواق طلباً للرّزق.

ج- إذا كان الرّسول واحداً من البشر بالضّرورة فلا أقلّ من أن ينزل إليه مَلَكٌ يشهد انّه رسول ربّ العالمين ويكون معه نذيراً للكافرين.

د- ينبغي أن يكون الرّسول غنيّاً لافقيراً يضطرّ للمشي في الأسواق سعياً وراء لقمة العيش وطلباً للرّزق. ولمّا كان محمّد فقيراً فهلّا أُلْقي إليه كنزٌ أو تكون له حديقةٌ غنّاء فيها مختلف الثّمار كي ينفق من الكنز ويأكل من الجنّة، وبذلك يكون غنيّاً وعظيماً، ويستغني عن السّعي وراء لقمة العيش.

هـ - اتّهم الكافرون محمّداً ﷺ بأنّه رجلٌ مسحورٌ مغلوبٌ على قواه العقليّة بقوىً خفيّةٍ شرّيرة.

هذه هي الاعتراضات والاقتراحات الّتي جاءت في آيتين كريمتين تسيلان رقّةً وعذوبةً، وتعرضان آراء الكافرين في أسلوب القرآن الكريم المعجز. لقد جاء الاستفهام الإنكاريّ بين يدي هذين الاقتراحين:﴿ مالِ هذا الرّسول يأكل الطّعام ويمشي في الأسواق﴾ والمعنى: لماذا كان هذا الرّسول بشراً يأكل الطّعام ويتخلّص

من الفضلات كسائر البشر، ولماذا لم يكن مَلَكاً من الملائكة. كما جاء حرف التّحضيض:"لولا" في الحثّ على أن ينزل إلى الرّسول مَلَكٌ من السّماء يشهد أنّه رسول الله مادام محمّدٌ بشراً وليس مَلَكا:﴿ لولا أُنْزل إليه مَلَكٌ فيكون معه نذيرا﴾ كما جاء حرف التّحضيض هذا مضمراً بين يدي الحثّ على أن يُلْقَى إليه ﷺ كنزٌ أو تكونُ له جنّةٌ يأكل منها، وبالتّالي يستغني عن السّعي وراء الرّزق:﴿ أو يُلْقى إليه كنزٌ أو تكونُ له جنّةٌ يأكل منها﴾ أمّا الاتّهام الأخير فإنّه في غاية القباحة والوقاحة، وذلك حينما بلغت الجراءة بالكافرين إلى الحدّ الّذي يقولون معه للمؤمنين: ماتتّبعون إلّا رجلاً مغلوباً على قواه العقليّة بقوىً خفيّة خارجيّةٍ شرّيرة:﴿ وقال الظّالمون إن تتّبعون إلّا رجلاً مسحورا﴾.

ونستطيع أن نفهم أنّ الكافرين كانوا أحزاباً، وأنّ منهم من جرى على لسانه هذا الاعتراض أو ذاك، وأنّ منهم من جرى على لسانه جلّ الاعتراضات وربّما كلّها. وفي جميع الأحوال هؤلاء الكافرون ظالمون وغير مستقرّين على رأي. وحينما ننظر إلى هذه الاعتراضات والاقتراحات في الآيتين الكريمتين نتبيّن أنّها تُعْرَض في أسلوب القرآن الكريم المعجز. هل يحلّم الكافرون أن تعرض اعتراضاتهم واقتراحاتهم في مثل البيان المعجز؟ لم يكونوا يحلُمون بشيءٍ من ذلك، ولكنّ القرآن الكريم ينصف أولئك الخصوم ويعرض اتّهامات الكافرين في أسلوبه المعجز. وليس وراء هذا العدل في معاملة الخصوم وراء.

والمعروف أنّ هذا الخلق العظيم في مجادلة الخصوم، اقتبسه بعض أمراء البيان والأئمّة الأعلام، بعرض حجج الخصوم في أوضح صورةٍ وأبلغ أسلوب، ثمّ الكرّ عليها بالنّقض الواحدة بعد الأخرى في المستوى ذاته من بلاغة الحجّة ووضوح البرهان.

وبعد عرض الآيتين الكريمتين في أسلوبها المعجز اقتراحات الكافرين واعتراضاتهم يكون الردّ عليها ونقضها في أسلوب القرآن الكريم المعجز، الّذي يُرْضي دائماً وأبداً كلّ عقلٍ بخصوص حكمه، ويشبع كلّ نفسٍ بجليل معناه، ويطرب كلّ أذنٍ بجميل مبناه.

وأوّل مايلاحظ بشأن دحض تلك الاعتراضات والاتّهامات أنّ الدّحض يعيد في أسلوبه المعجز ترتيب تلك الاعتراضات والاتّهامات وفق حكمةٍ بالغة، يمكن التّعبير عنها بأنّ الدّحض يبدأ بأوضح تلك الاعتراضات والاتّهامات سذاجةً وعَوارا، ثمّ يتمّ التّحوّل إلى دحض الاعتراض أو الاتّهام الّذي يليه، والّذي احتاج من الكافرين إلى مزيد تفكير، فالّذي يليه، حتّى كان الدّحض أخيراً لأخطر الاعتراضات والاتّهامات، وأبعدها ضلالاً، وأشدّها استحالة.

وقد اتّسم أوّل ردّ بالفوريّة. وهذا معناه أنّ آخر اعتراضٍ للكافرين أكثرها سذاجةً وأوضحها عَوارا. ومعناه كذلك أنّ من الرّدود مااتّسم بالفوريّة، وذلك على غرار الرّدود على كلّ الاعتراضات المفردة في السّورة الكريمة، وأنّ من الرّدود ماكان على التّراخي.

وممّا يلاحظ على أخطر اقتراحات الكافرين الّذي جاء على لسان الكافرين في قول الحقّ جلّ وعلا:﴿ لولا أُنْزِل إليه مَلَكٌ فيكون معه نذيرا﴾ أنّ الردّ عليه كان ذا صفةٍ فريدة. لقد كان ذلك الاقتراح مطيّةً لاقتراحين آخرين للكافرين، وبذلك يكون من الكافرين ثلاثة اقتراحات خطيرة، يفضي أوّلها إلى ثانيها، ويفضي ثالثها، ثمّ يكون الدّحض للاقتراحين الأخيرين، وفي ذلك دحضٌ لاقتراح الأوّل من جنسهما، كما أنّ الاقتراح الأوّل كان من نصيبه الدّحض أوّلاً كما سيتبيّن. وقد تدرّجت الرّدود الثّلاثة قوّةً تبعاً لتدرّج الاقتراحات الثّلاثة خطورة.

وإنّ هذا القول الموجز بحاجةٍ إلى شيءٍ من البسط.

أ– لقد جاء في الآية الكريمة الثّامنة آخر اعتراضٍ في السلسلة أو اتّهام، كما جاء في الآية الكريمة التّاسعة الرّد فوراً. قال تعالى:﴿ وقال الظّالمون إن تتبّعون إلّا رجلاً مسحورا. انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلّوا فلايستطيعون سبيلا﴾ والمعنى انظر يامحمّد كيف ضرب الكافرون لك الأمثال فضلّوا فلا يهتدون طريقاً ولايستطيعون سبيلا. ويلاحظ أنّ القوم يوصفون بأنّهم ظالمون بين يدي ذكر اتّهامهم. والظّلم يكون بمعنى الشرّك وقد قال عزّ من قائل[1]:﴿ إنّ الشّرك لظلمٌ عظيم﴾ ويكون بمعنى وضع الشّيء في غير موضعه المختصّ به[2] فهؤلاء المشركون قد ظلموا العبادة بوضعها في غير موضعها، وقد أفضى بهم هذا الظّلم إلى ظلم المصطفى ﷺ بأن ضربوا له الأمثال. ويلاحظ كذلك أنّ لفظة الأمثال تجيء في صيغة الجمع، مع أنّ الاتّهام نزّل المصطفى ﷺ منزلة الرّجل المسحور المغلوب على قواه العقليّة بقوىً خفيّةٍ خارجيّةٍ شرّيرة. وبذلك لايكتفي الرّدّ بدحض هذا الاتّهام وحده، إنّما يدحض كلّ الاتّهامات المماثلة الّتي أطلقها الكافرون عليه ﷺ في مناسباتٍ أخرى. لقد اتّهم الكافرون المصطفى ﷺ بأنّ مثله مثل الشّاعر، والكاذب، والكاهن، والسّاحر، وما إلى ذلك:﴿ كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلّا كذبا﴾[3] وإن دحض السّورة الكريمة كلّ الاتّهامات المماثلة أكّدته الآية الكريمة الثّالثة والثّلاثون. قال تعالى:﴿ولا يأتونك بمثلٍ إلّا جئناك بالحقّ وأحسن تفسيرا﴾.

ب–إذا كانت الآية الكريمة التّاسعة قد ردّت على الاتّهام الأخير، فإنّ الآية الكريمة العاشرة ردّت على الاقتراح الرّابع بأن يُلْقَى إلى النّبيّ ﷺ كنزٌ أو تكون له جنّةٌ يأكل منها. ثمّ فصّلت الآيات الكريمات التّاليات جوانب الرّدّ حتّى نهاية الآية

---

[1] سورة لقمان ١٣.

[2] مفردات الرّاغب الأصفهاني:"ظلم" ٢/٤١١.

[3] سورة الكهف ٥.

الكريمة التّاسعة عشرة، وبذلك يكون الرّدّ قد جاء في عشر آياتٍ كريمات، ابتداءً بالآية الكريمة العاشرة، وانتهاءً بالآية الكريمة التّاسعة عشرة. قال تعالى:﴿ تبارك الّذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا. بل كذّبوا بالسّاعة وأعتدنا لمن كذّب بالسّاعة سعيرا. إذا رأتهم من مكانٍ بعيدٍ سمعوا لها تغيّظاً وزفيرا. وإذا أُلْقُوا منها مكاناً ضيّقاً مقرّنين دَعَوْا هنالك ثبورا. لاتدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيرا. قل أذلك خيرٌ أم جنّة الخلد الّتي وُعِدَ المتّقون. كانت لهم جزاءً ومصيرا. لهم فيها مايشاءون خالدين. كان على ربّك وعداً مسئولا. ويوم يحشرهم ومايعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلّوا السّبيل. قالوا سبحانك ماكان ينبغي لنا أن نتّخذ من دونك من أولياء ولكن متّعتهم وآباءهم حتّى نَسُوا الذّكر وكانوا قوماً بورا. فقد كذّبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفاً ولانصرا. ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيرا﴾ .

ومعنى الآيات الكريمات، والله تعالى أعلم: تعظّم وتمجّد وتكاثر خير الله تعالى الّذي إن شاء جعل لك في هذه الحياة الدّنيا خيراً من ذلك الّذي اقترحه لك الكافرون من الكنز الّذي ينزل إليك أو الحديقة الّتي تأكل منها، بأن تكون لك بدل الحديقة الواحدة حدائق تجري من تحت أشجارها الأنهار، وبأن يجعل لك قصوراً مَشِيدة. الحقيقة أنّ الباعث للكافرين على اقتراح الكنز والجنّة أنّهم كذّبوا بالسّاعة فلم يعملوا من أجل يوم القيامة، وأعددنا لمن كذّب بالسّاعة ناراً متأجّجة. إذا رأتهم يوم القيامة من مكانٍ بعيد سمعوا صوت حنقها عليهم، وزفير صدرها الحاقد عليهم. وإذا أُلْقوا من النّار في مكانٍ ضيّق مخصّصٍ لهم مقرّنين في الأغلال الّتي تشدّ بطبعها الأيدي إلى الأعناق شدّاً وثيقا، نادوا هنالك هلاكهم وقالوا: واثبوراه، واهلاكاه. وعلى سبيل التّبكيت يقال لهم: لاتنادوا الهلاك مرةً واحدةً ونادوه مرّاتٍ كثيرة، فإنّ كلّ ذلك لاينفعكم. قل يامحمّد لكفّار مكّة ومن شاكلهم:

أذلك العذاب الأليم في النّار خيرٌ أم جنّة الخلد الّتي وعدها الله تعالى المتّقين. إنّها جزاء حسناتهم وصبرهم على البلاء والطّاعات وعن المعاصي. إنّ لهم في الجنّة مايشاءون مما تشتهيه أنفسهم وتلذذه أعينهم، كان ذلك النّعيم المقيم على ربّك جلّ وعلا وعّداً وعد به الكريم، فكأنّه حقٌّ للموعود به، له أن يسأله ويطالب به. وحينما يعطى الله تعالى المتّقين يوم القيامة من واسع فضله جلّ وعلا فلا مكان أساساً لسؤال موعودٍ ماوعده الكريم جلّ وعلا به.

وفي يوم القيامة يحشر الله تعالى المشركين ومايعبدون من دون الله تعالى فيقول عزّ وجلّ للمعبودين، وهو أعلم بما يسأل عنه، أأنتم أيّها المعبودون أضللتم عبادي هؤلاء عن سواء السّبيل أن أنّهم هم الذّين ضلّوا من ذوات أنفسهم بإغواء من الشّيطان الرّجيم. قال المعبودون: تنزيهاً لك يا ربّنا من كلّ ما ألحق بك الظّالمون ممّا لايليق بعظمتك وجلالك، ما كان يصحّ لنا ولا يليق بنا أن نتّخذ من دونك من شركاء، ولكن متّعتهم يا ألله في تلك الحياة الدّنيا، ومتّعت آباءهم حتّى نسوا ذكرك وشكرك وقرآنك الكريم ورسولك العظيم ﷺ، وكانوا قوماً هالكين.

ويقال للمشركين: هاهم المعبودون أولاء قد كذّبوكم بما تقولون بأنّهم سبب ضلالكم فما تستطيعون أن تصرفوا العذاب عنكم ولا أن تنصروا أنفسكم. ومن يظلم منكم نفسه أيّها النّاس نذقه عذاباً أليما.

ج– في الآية الكريمة العشرين يجيء الرّدّ على إنكار الكافرين على المصطفى ﷺ أن يأكل الطّعام أو أن يمشي في الأسواق. قال تعالى:﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلّا إنّهم ليأكلون الطّعام ويمشون في الأسواق. وجعلنا بعضكم لبعضٍ فتنةً أتصبرون. وكان ربّك بصيرا﴾ وهذا الإنكار بشقّيه أوّل اعتراضات الكافرين، وقد جاء في الآية الكريمة السّابعة. قال تعالى:﴿ وقالوا مالِ هذا الرّسول يأكل الطّعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه مَلَكٌ فيكونَ معه نذيرا﴾.

ومن البيّن أنّ هذه الآية الكريمة تشمل الاعتراض الأوّل بشقّيه وهما أكل الطّعام والمشي في الأسواق، كما تشمل الاقتراح بان ينزل إليه ﷺ مَلَكٌ من السّماء يشهد بأنّه عليه الصّلاة والسّلام رسول ربّ العالمين. والحقيقة أنّا تعمّدنا الوقوف عند كامل هذه الآية الكريمة لأنّ ما جاء فيها من اعتراضات أو اقتراحاتٍ قد جاء الردّ عليه وفق هذا النّسق. وهذا يقتضينا أن نقف عند أبعاد هذه الآية الكريمة السّابعة، كي نتبيّن العلاقات الواضحة والخفيّة من معانيها، الّتي تساعدنا، بإذن الله تعالى، على تبيين مظهرٍ من مظاهر إعجاز السّورة الكريمة في التّرابط بين الرّدود، وجلاء الحكمة البالغة الّتي أومأنا إليها آنفاً، والّتي نظمت سلك الرّدود، بالتحوّل في أثناء الرّدّ من أبسط الاقتراحات وأوضحها سذاجة، إلى ما احتاج من القوم إلى شيءٍ من مجهودٍ وتفكير. إنّ معنى الآية الكريمة السّابعة، والله تعالى أعلم، وقال الكافرون ما بال هذا الرّسول يأكل الطّعام؟ إنّه يأكل الطّعام لأنّه بَشَرٌ وبالتّالي يضطّر للذّهاب إلى الغائط، فهلّا كان ملكاً من الملائكة لا يأكل أصلاً، وما بال هذا الرّسول يمشي في الأسواق يطلب الرّزق، إنّ الرّسول لو كان ملكاً لما احتاج إلى طعام، وما احتاج إلى أن يمشي في الأسواق سعياً وراء لقمة العيش. وإذا كان الرّسول إلى البشر ينبغي أن يكون واحداً منهم فهلّا أُنْزِل على محمّد، على أقلّ تقدير، مَلَكٌ يشهد بأنّه رسول ربّ العالمين، فيكون مع محمّدٍ نذيراً لمن كفر واستكبر.

ممّا سبق يتبيّن أنّ الباعث للكافرين على هذه المجموعة من الاعتراضات إنكارهم أن يكون الرّسول واحداً من البشر، واقتراحهم، إن كان ينبغي أن يكون ثَمَّة رسول، أن يكون واحداً من الملائكة.

وحينما يتحوّل السّياق إلى الرّدّ على آخر الاقتراحات وهو المتعلّق بنزول الملائكة إليه ﷺ يكون الرّدّ موافقاً لترتيب الاعتراضات في الآية الكريمة السّابعة.

وحينما يكون الرّد على إنكار الطّعام والمشي في الأسواق في آيةٍ كريمة واحدة، هي الآية الكريمة العشرون، وحينما يكون الرّدّ على اقتراح نزول الملك إليه ﷺ في عشر آياتٍ كريمات، من الحادية والعشرين إلى الحادية والثّلاثين، يكون في الحقيقة الرّدّ على اقتراحات الآية الكريمة السّابعة في إحدى عشرة آيةً كريمة، لأنّ الاقتراحات في الآية الكريمة تنبعث من حرص الكافرين على أن يكون الرّسول واحداً من الملائكة وليس واحداً من البشر.

وبهذا تكون الاقتراحات في الآية الكريمة السّابعة قد جاء الرّدّ عليها في النّسق نفسه في إحدى عشرة آيةً كريمة. وهكذا تتأكّد الحكمة الّتي أومأنا إليها والّتي انتظمت الرّدود، من التّحوّل الدّائم من أبسط الاقتراحات وأشدّها سذاجةً، إلى ما يليها من اقتراحات احتاجت من القوم إلى إعمال فكر، وإطالة تأمّل.

د- عرفنا أنّ الباعث على الاعتراضات في الآية الكريمة السّابعة ظنّ الكافرين أنّ رسول الله تعالى يجب أن يكون واحداً من الملائكة وليس واحداً من البشر. وقد جاء الرّدّ على الإنكار على الرّسول ﷺ أن يأكل الطّعام ويمشي في الأسواق في الآية الكريمة العشرين، كما جاء الرّدّ على اقتراح نزول الملك ﷺ في الآيات الكريمات من الحادية والعشرين إلى الحادية والثّلاثين. وقد جاء في الآية الكريمة العشرين الرّدّ وتثبيت فؤاد المصطفى ﷺ . قال تعالى:﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلّا إنّهم ليأكلون الطّعام ويمشون في الأسواق. وجعلنا بعضكم لبعضٍ فتنةً أتصبرون. وكان ربّك بصيرا﴾ والمعنى: وما أرسلنا قبلك يامحمّد من المرسلين إلّا إنّهم ليأكلون الطّعام ويتخلّصون من الفضلات، ويمشون في الأسواق يطلبون من فضل الله تعالى. وجعلنا بعضكم أيّها النّاس فتنةً وابتلاءً لبعضكم الآخر، فالغنيّ فتنةٌ للفقير، والرّفيع فتنةٌ للوضيع، والعالم فتنةٌ للجاهل، والصّحيح فتنةٌ للمريض، والذّكيّ فتنةٌ للغبيّ، وهكذا. فعليكم بالصّبر. وكان ربّك يامحمّد ويأيّها الإنسان

بصيرا بظواهر الأمور كبواطنها. إنّ كلّ المرسلين السّابقين بشرٌ وليسوا ملائكة، فلست يامحمّد بدعاً من الرّسل. وكأنّ في الإنكار على المصطفى ﷺ أكل الطّعام والمشي في الأسواق ذكراً غير مباشر للملَك الّذي لايأكل الطّعام أصلاً ولايسعى وراء لقمة العيش.

أمّا الشّقّ الآخر من الآية الكريمة السّابعة:﴿ لولا أُنْزِل إليه مَلَكٌ فيكون معه نذيراً﴾ ففيه ذكر المَلَك بصريح اللّفظ، ثمّ إنّ الرّدّ على هذا الاقتراح جاء في الإحدى عشرة آيةً التّالية. وهذه هي الآيات الكريمات. قال عزّ من قائل:﴿ وقال الّذين لايرجون لقاءنا لولا أُنْزِل علينا الملائكةُ أو نرى ربّنا. لقد استكبرا في أنفسهم وعَتَوْا عتوّاً كبيرا. يوم يرون الملائكة لابُشْرَى يومئذٍ للمجرمين ويقولون حِجْراً محجورا. وقَدِمْنا إلى ماعملوا مِنْ عملٍ فجعلناه هباءً منثورا. أصحاب الجنّة يومئذٍ خيرٌ مستقرّاً وأحسن مقيلا. ويوم تشقّق السّماء بالغمام ونُزِّل الملائكة تنزيلا. المُلْك يومئذٍ الحقُّ للرّحمن. وكان يوماً على الكافرين عسيرا. ويوم يَعَضُّ الظّالم على يديه يقول ياليتني اتّخذت مع الرّسول سبيلا. يا وَيْلَتَى ليتني لم أتّخذ فلاناً خليلا. لقد أضلّني عن الذِّكْر بعد إذ جاءني. وكان الشيطان للإنسان خذولا. وقال الرّسول ياربّ إنّ قومي اتّخذوا هذا القرآن مهجورا. وكذلك جعلنا لكلّ نبيٍّ عدوّاً من المجرمين. وكفى بربّك هادياً ونصيرا﴾.

ونودّ أن نقف عند معاني الآيات الكريمات أوّلاً، ثمّ عند الآية الكريمة الأولى الّتي يتركّز فيها الرّد آخرا. وهذا هو معنى الآيات الكريمات، والله تعالى أعلم. وقال الّذين لايرجون لقاءنا يوم القيامة هلّا أُنْزِل علينا الملائكة يشهدون أنّ محمّداً رسول ربّ العالمين، أو نرى ربّنا عزّ وجلّ عِياناً فيخبرنا أنّه أرسل محمّداً رسولاً إلينا. لقد استكبر هؤلاء القائلون في أنفسهم وعتوا على غيرهم عتوّاً كبيرا. يوم يرون ملائكة العذاب يقول الملائكة للكافرين لابشارة بخيرٍ سارٍ للمجرمين يم

القيامة، ويقول المجرمون بقصد دفع الشّرّ عنهم وصرف العذاب:﴿ حجراً محجورا﴾ ولأنّ أعمال الكافرين الصّالحة بمقياس الإسلام لم يريدوا بها وجه الله تعالى، من إكرام ضيف ورعاية حقوق جار وإغاثة ملهوفٍ وما إلى ذلك، فقد جعلها الله تعالى في عدم النّفع بمنزلة الغبار المتطاير الّذي يرى في ضوء الشّمس القادم من كوّةٍ في الشّبّاك.

أمّا أصحاب الجنّة يوم القيامة فإنّهم خيرٌ موضع استقرارٍ ومكانا، وأحسن وقت قائلةٍ وزمانا. ويوم القيامة تتشقّق السّماء عن الغمام. وفي ذلك الغمام ينزل الملائكة تنزيلاً، وفي أيديهم صحائف أعمال العباد. المُلْكُ الحقّ في ذلك اليوم العظيم لرحمن الدّنيا والآخرة جلّ وعلا. وكان يوماً صعباً على الكافرين. وفي ذلك اليوم يَعَضّ الظّالم على كلتا يديه لفرط النّدم وليس على إصبعٍ واحدةٍ أو أكثر من إصبعٍ ويقول ياليتني اتّخذت مع الرّسول محمّد ﷺ سبيلاً إلى الهدى والرّشاد. ياويلتى ليتني لم أتّخذ فلاناً من البشر خليلاً يقودوني كالأعمى إلى مهاوي الرّدى. لقد أضلّني صديق السَّوء هذا عن القرآن الكريم الّذي يهدي للطّريقة الّتي هي أقوم، بعد أن جاءني القرآن الكريم على لسان المصطفى ﷺ . وكان الشّيطان الرّجيم خذولاً للإنسان الكافر. وفي يوم القيامة يشكو المصطفى ﷺ قومه ويقول: ياربّ إنّ قومي اتّخذوا هذا القرآن الكريم مهجوراً فلم يرتّلوه ترتيلاً، ولم يتدبّروه كما ينبغي أن يكون التّدبّر، ولم يهتدوا بهديه كما ينبغي أن يكون الاهتداء. ويجيء في آخر الآيات الكريمة تسلية المصطفى ﷺ وتثبيت الفؤاد. فكما جعل الله تعالى لك يامحمّد عدوّاً من المجرمين جعل لكلّ النبيّين السّابقين عليهم جميعاً صلوات ربّ العالمين وسلامه. وكفاك يا محمّد بربّك هادياً يهديك إلى الصّراط المستقيم، ونصيراً لك على أعدائك. ويلاحظ أنّ ظاهرة تلاؤم الأصوات تصل القمّة الّتي ليس وراءها وراء في تذييل آخر الآيات الكريمات:﴿ وكفى بربّك هادياً ونصيرا﴾ إنّ ثمّة

موافقةً لإحدى صور الشّطر من بحر الكامل، وهذه الصّورة هي: متفاعلن متفاعلن متفاعل.

إنّ الكافرين يطلبون على طريق الاستهزاء والكبرياء أن ينزل عليهم الملائكة في الدّنيا أو أن يروا الله تعالى:﴿ كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلّا كذبا﴾ وإنّ الرّد عليهم بعد أن يصفهم بأبشع الصّفات وأسوئها في الآية الكريمة الأولى يتحوّل إلى الأهوال الّتي سوف يصادفها أولئك الكافرون يوم القيامة، انطلاقاً من ملائكة العذاب الّتي سوف يرونها، من الوقت الذّي يحضر فيه الموت الكافرين، إلى أن يدخلوا نار جهنّم خالدين فيها بإذن ربّهم عزّ وجلّ.

ونتحوّل الآن للوقوف مليّاً عند الآية الكريمة الأولى الّتي يتركّز فيها الرّدّ. قال تعالى:﴿ وقال الّذين لايرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكةُ أو نرى ربّنا. لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوّاً كبيرا﴾ ونودّ أن يكون وقوفنا في هيئة نقاط:

أ- جاء الاقتراح في الآية الكريمة السّابعة على لسان الكافرين عل النّحو التّالي. قال تعالى:﴿ لولا أنزل إليه ملكٌ فيكون معه نذيرا﴾ والمعنى: هلّا أُنْزِل إلى محمّد مَلَكٌ يشهد أنّه رسول ربّ العالمين فيكون المَلَك نذيرا مع محمّد. ويلاحظ هنا أنّ الملك ينزل إلى محمّد ﷺ.

ب- في الآية الكريمة الحادية والعشرين الّتي تركّز فيها الرّدّ، كان ثمّة تجاوزٌ لصيغة اقتراح الكافرين إلى اقتراحين آخرين. ومحور الاقتراحات الثّلاثة الرّؤية. وقد جاء في صدر آية الرّدّ هذه، إيماءً إلى اقتراح الكافرين نزول المَلَك إليه ﷺ، قول الحقّ جلّ وعلا:﴿ وقال الّذين لايرجون لقاءنا﴾ وذلك على غرار وصف الآية الكريمة الرّابعة القوم بالكفر وذلك في القول:﴿ وقال الّذين كفروا إن هذا إلّا إفكٌ افتراه وأعانه عليه قومٌ آخرون فقد جاءوا ظلماً وزورا﴾ وعلى غرار وصف الآية الكريمة الثّامنة القوم بالظّلم في القول:﴿ وقال الظّالمون إن تتبعون إلّا رجلاً مسحورا﴾ وكأنّ

القول:﴿ وقال الّذين لايرجون لقاءنا﴾ يعيّن الباعث للكافرين على طرح اقتراحاتهم الثّلاثة، أن ينزل الملك إليه ﷺ، أن ينزل عليهم الملائكة، أن يروا ربّهم عزّ وجلّ عِيانا.

ج- حينما ننظر إلى اقتراحي المشركين في الآية الكريمة الحادية والعشرين ونضع قَبْلهما اقتراحهم في الآية الكريمة السّابعة نتبيّن اتّجاه جراءة القوم نحو الشّدّة باطّراد. بشأن الاقتراح الأوّل يطلبون نزول المَلَك إليه ﷺ شاهداً أنّه رسول ربّ العالمين ونذيراً معه. وبشأن الاقتراح الثّاني يطلبون نزول الملائكة عليهم كي يروهم عياناً وكي يشهدوا أنّ محمّداً ﷺ رسول ربّ العالمين. وبشأن الاقتراح الثّالث يطلبون أن يروا الله تعالى عِياناً دليلاً على أنّ محمّداً رسول ربّ العالمين.

د- دليلاً على اتّجاه جراءة القوم نحو الشّدّة باطّراد، أنّ كلًّا من الاقتراحين في الآية الكريمة الحادية والعشرين كان من نصيبه وصفٌ للكافرين يقابله، وتّسم آخرهما بشدّةٍ أكبر. إنّه في مقابل الاقتراح:﴿ لولا أنزل علينا الملائكة﴾ يجيء الوصف المقابل:﴿ لقد استكبروا في أنفسهم﴾ لقد تجاوز الكافرون أقدراهم وبلغوا في الكِبْر شأواً بعيداً لذا هم يطلبون نزول الملائكة عليهم. وإنّه في مقابل الاقتراح الأشدّ جرأة:﴿ أو نرى ربّنا﴾ يجيء الوصف المقابل الّذي يدلّ على أنّ طغيان القوم وبغيهم على الآخر ليس عليه من مزيد:﴿ وعتوا عتوّاً كبيرا﴾.

هـ- إذا كان أشدّ الاقتراحات جراءة:﴿ أو نرى ربّنا﴾ يقابله القول:﴿ وعتوا عتوّاً كبيرا﴾ وكان الاقتراح الّذي يقابل الاقتراح في الآية الكريمة السّابعة:﴿ لولا أنزل إليه مَلَك فيكون معه نذيرا﴾؟ الّذي يقابله القول في صدر الآية الكريمة الحادية والعشرين:﴿ وقال الّذين لايرجون لقاءنا﴾ إنّ الباعث للكافرين على اقتراح نزول الملك شهيداً بأنّ النّبيّ ﷺ رسول ربّ العالمين أنّهم لايرجون لقاء الله تعالى يوم القيامة، ولايعملون لذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود. وهكذا يكون القول:﴿

وقال الّذين لايرجون لقاءنا﴾ ردّاً على الاقتراح في الآية الكريمة السّابعة من ناحية، وتعييناً للباعث على هذه الاقتراحات الّتي تدور حول طلب رؤية ماتمتنع عليهم رؤيته من ناحيةٍ أخرى. إنّ رؤية المصطفى ﷺ المَلَك جائزة، وهي مستحيلةٌ في حقّ المقترحين سواءٌ أكان المطلوب رؤية ملكٍ واحدٍ أم أكثر. وإنّ رؤية الكافرين ربّ العزّة والجلال غايةٌ في الاستحالة. بل إنّهم يوم القيامة محرومون من هذه الرّؤية، وقد قال تعالى[1]:﴿ كلاّ إنّهم عن ربّهم يومئذٍ لمحجوبون﴾ . وإنّ هذه الاقتراحات لكافري مكّة تذكّرنا بالمجموعة من الاقتراحات الّتي جاءت في سورة الإسراء على جهة الخصوص. قال تعالى[2]:﴿ ولقد صرّفنا للنّاس في هذا القرآن من كلّ مَثَلٍ فأبى أكثر النّاس إلّا كفورا. وقالوا لن نؤمن لك حتّى تفجر لنا من الأرض ينبوعا. أو تكون جنّةٌ من نخيلٍ وعنبٍ فتفجّر الأنهار خلالها تفجيرا. أو تُسْقِط السّماء كما زعمت علينا كِسَفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلا. أو يكونَ لك بيتٌ من زخرفٍ أو ترقى في السّماء ولن نؤمن لرقيّك حتّى تنزّل علينا كتاباً نقرؤه. قل سبحان ربّي هل كنت إلّا بشراً رسولا﴾.

و- بالرّدّ على اقتراح الكافرين نزول الملك إليه ﷺ والّذي جاء في الآيات الكريمات من الحادية والعشرين إلى الحادية والثّلاثين، يكون السّياق قد ردّ على كلّ الاقتراحات والاتّهامات. وقد انفرد الاقتراح بنزول الملك إليه ﷺ بأنّ الرّدّ عليه، ابتداءً من الآية الكريمة الحادية والعشرين، تحوّل إلى ذكر اقتراحين آخرين من جنس الاقتراح الأوّل. وإنّ في الرّدّ على كلٍّ من الاقتراحين في الآية الكريمة ذاتها، ردّاً ضمنيّاً على الاقتراح الأوّل. هذا إلى كون صدر الآية الكريمة:﴿ وقال الّذين لايرجون لقاءنا﴾ يقوم بدور الرّدّ على الاقتراح الأوّل من ناحية، وبذكر الباعث

---

[1] سورة المطفّفين ١٥.

[2] سورة الإسراء ٨٩-٩٣.

على الاقتراحات الثّلاثة المتجانسة، على نحو ماتبيّن، من ناحيةٍ أخرى. وهكذا يكون الكلام جديداً قديماً، مستأنفاً وغير مستأنفٍ في آنٍ واحد.

ز- هكذا يعرض القرآن الكريم اقتراحات الخصوم واتّهاماتهم في أسلوبه المعجز، وهكذا يكرّ عليها بالنّقض في أسلوبه المعجز كذلك. والله تعالى أعلم.

الخاتمة

في الصّفحات السّابقة، قمنا باستلال هذه الدّراسة من دراستين سابقتين للسّورة الكريمة، أولاهما بعنوان: تأمّلات في سورة الفرقان، وأخراهما في سلسلة التّفسير البسيط للقرآن الكريم، الّذي يساير مسابقة المملكة العربيّة السعوديّة العالميّة لتلاوة القرآن الكريم وتجويده وتفسيره. والحقيقة أنّ هذه الدّراسة بعنوان: لمحاتٌ في إعجاز سورة الفرقان، فيها العديد من اللّمحات الّتي ليست في الدّراستين السّابقين. وهكذا يتأكّد أنّ بحر معاني القرآن الكريم لاقرار له ولاساحل.

وهذه الدّراسة ذات شقّين، أوّلهما يعرض لبعض المسائل المتعلّقة بالسّورة الكريمة، وآخرهما يدرس بعمقٍ مسألتين اثنتين، أولاهما تطوّر الدّلالة الّتي توّجت

بمجيء القول:﴿حِجْراً محجورا﴾ في آيتين كريمتين على لسان الكافرين مرّة، وعلى لسان البحرين العذب الفرات والمِلْح الأجاج مرّةً أخرى. وأخراهما الإعجاز في سرد اعتراضات الكافرين ودحضها. وتكاد تكون هذه المسألة الأخرى الظّاهرة الّتي تختصّ بها سورة الفرقان المكّيّة الكريمة من بين سائر سور القرآن الكريم.

والله تعالى أسأل أن يتقبّل هذا العمل وأن ينفع به إنّه جوادٌ كريم. وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين. والحمد لله ربّ العالمين.

فهرست المصادر والمراجع

القرآن الكريم

ابن حجر (الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق عبدالعزيز بن عبدالله بن باز، محمّد فؤاد عبدالباقي محبّ الدّين الخطيب المكتبة السّلفيّة.

ابن فارس (أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريّا) معجم مقاييس اللّغة، تحقيق وضبط عبدالسّلام محمّد هارون. الطّبعة الثّانية١٣٩٠هـ ١٩٧٠م حلبي. مصر

ابن منظور (جمال الدّين محمّد بن مكرّم) لسان العرب بيروت ١٣٧٤هـ ١٩٥٥م.

أبوحيّان (محمّد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيّان) البحر المحيط، بيروت(تصوير).

باجودة (حسن محمّد) تأملات في سورة الفرقان، الطّبعة الثّانية. مكّة المكرمة ١٤١٤هـ ١٩٩٣م.

بوكاي (موريس) القرآن الكريم والتّوراة والإنجيل والعلم. دراسة الكتب المقدّسة في ضوء المعارف الحديثة. دار المعارف بمصر١٩٧٩م.

الرّاغب الأصفهاني (أبو القاسم الحسين بن محمّد) المفردات في غريب القرآن. مكتبة الباز الطّبعة الأولى ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.

الزّمخشري (أبوالقاسم جارالله محمود بن عمر الزّمخشري الخوارزمي) الكشّاف. مصطفى البابي الحلبي. مصر١٣٦٧هـ ١٩٤٨م.

السّيوطي (جلال الدّين عبدالرّحمن) الإتقان في علوم القرآن تحقيق محمّد أبوالفضل إبراهيم.مصر ١٩٧٤م تفسير الجلالين.

الطّبري (أبو جعفر محمّد بن جرير) جامع البيان في تفسير القرآن ، الطّبعة الأولى ، بولاق ، ١٣٢٩هـ .

الفيروزابادي (مجد الدّين محمّد بن يعقوب)القاموس المحيط. حلبي مصر.بدون تاريخ.

المعجم الوسيط . الطّبعة الثّانية. مجمع اللّغة العربيّة

النّيسابوي (الحسن بن مُحَمَّد بن حسين) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان. مطبوع بهامش تفسير الطّبري الطّبعة الأولى. بولاق.١٣٢٩هـ.

فهرست الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
المقدّمة	
مسائل متعلّقة بسورة الفرقان	
مظاهر من إعجاز سورة الفرقان	
أ- تطوّر الدّلالة	
ب- الإعجاز في سرد اعتراضات الكافرين ودحضها	
الخاتمة	
فهرست المصادر والمراجع	
فهرست الموضوعات	